الفصل التاسع
الشعاع الباهت

أصبحت تقرأ الآن بعض المقاطع الجريئة الراديكالية، التي وردت في الفصل الأخير من كتابي «أيام عربية»، وكأنها من حكايات الجن في الأيام الغابرة. رجعت إلى الجزيرة العربية بعد غياب دام خمس سنوات قضيتها أثناء الحرب في إنجلترا. عندما عدت وجدت الجزيرة العربية تتمتع بمستوى رفيع من العيش أفضل من المستوى الذي كانت عليه إنجلترا عندما غادرتها. ويعود الفضل في ذلك إلى المساعدة السخية التي قدمتها بريطانيا وأمريكا للمملكة.

كان العمل في اكتشاف آبار النفط في الجزيرة العربية قد استؤنف، وأسفرت تلك الجهود عن ضمان مصادر نفطية كافية وثابتة تدعم عائدات المملكة على المستقبل البعيد. كان تعداد السكان في الرياض قد ارتفع من ثلاثين ألفاً ليصل إلى حوالي ثمانين ألف نسمة. وكان السكان في الواقع قد انتشروا إلى ما وراء حدود تلك المدينة.

كانت الدول المجاورة تبدي -منذ زمن طويل- بالغ التقدير للمملكة العربية السعودية باعتبار أنها بلد يكن الخير لكل الناس، ويعمل بإصرار على نشر وسيادة العدل بينهم. وبسبب مكانتها المرموقة في العالم العربي هذه الأيام فهي تدين بالكثير إلى الرجل الذي قادها على هذا الدرب.

أما بالنسبة لابن سعود فكان قد بلغ ذروة شهرته وذاع صيته بعد زيارته الأخيرة التي قام بهـا إلى مصر لمقابلة الرئيس روزفلت والسـيد ونستون تشـرشل. كانت علاقـته مع أمريكا ـ وبشكل مـتواصل ـ رائعة علماً بـأنه نادراً ما كان يعتـقد بأن بإمكان أمريكا أن تظل طرفاً دائماً في الحياة السياسية لبلدان الشرق الأوسط. وبهذا الخصوص واسـتناداً لبعد نظره لم يكن بوسـعه إلا أن يتخيل بريطانيـا وهي واقفة وحدها بصفتهـا حاجزاً في وجه التوسع السوفيتي الإمـبريالي. كان ذلك التوسع، بالنسبة له -بالنسـبة للأقطار العربية الأخرى- بمنزلة القضيـة الكبرى التي تمخضت عن الحرب، وأصبح على الأجيال القادمة أن تجد حلاً لها.

ماذا يمكن أن يفـكر الملك في المشهد الـذي يمكن أن يقع عليه نظره بعـد مرور عقد من الازدهار، وخـاصة إذا قدر له أن ينهض من قبره ليـرى التقدم الذي طرأ على مملكة عمل على إرساء قواعدها؟ لن يكون مـسروراً حيال ما يمكن أن يحدث لأسـرته الحاكـمة ولشـعب بلاده. لكن في عـام ١٩٤٥م ظهرت بعض العـوامل وبدأت تتفاعل، كان بعضها قابلاً للتمعن والأخذ في الحسبان في حين كان بعضها الآخر غـامضـاً تماماً ولا يمكن أخـذه في الحسـبان، علمـاً بأنه كان لهـذه الأمور المستجدة دور جزئي في توجه التطورات اللاحقة. كان ابن سعود قد بلغ من العمر في تلك المرحلة ستة وخمسين عاماً[1]، وكان بشكل عام في صحة جيدة ومسيطر تماماً على كافة أعضاء الحكومة، لكنه كـان يعاني من مرض التهاب المفاصل. كان قد اعتاد على استعمـال الكرسي الذي يتحرك على عجلات الذي قدم هدية له من روزفلت. كان يسـتعـمله بشكل منتظم لعلمه أنه في يوم من الأيـام سيعـجز عن استخـدام ساقيه. كمـا تم وضع مصاعد في جمـيع قصوره[2]، كما وضعت في

(١) الصحـيح أن عمـر الملك عبـدالعزيز في تلك السنة بحـسب التقـويم الميلادي هو ٦٨ سنة، وبحسـب التاريخ الهجري فيكون عمره ٧١ سنة. إذا علمنا أن مولد الملك عبدالعزيز كان في عام ١٢١٣هـ الموافق ١٨٧٧م.

(٢) لم يكن هناك سوى مصعد واحد في قصر المربع بالرياض.

أماكن أخرى مصاطب لتصعد عليها سيارته إلى الطابق الأول وأحياناً إلى السقف. لكن سرعان ما تردت صحته وأصبح يقضي معظم وقته جالساً. كان يطلب من الأطباء أن يزودوه بالأدوية عند إحساسه بأبسط الآلام.

عادت أفواج الأمراء الذين كانوا قد ذهبوا في عام ١٩٤٥م إلى سان فرانسيسكوا حاملين معهم آراء وعادات جديدة. والجدير بالذكر هنا أن الملك نفسه هو الذي أرسى قواعد ذلك التشدد ليخدم به مصالح البلاد بشكل عام. لكنه لم يتخلَّ أبداً كما أنه لم يتهاون في ترك الركائز الأساسية للعقيدة الإسلامية. لكن لم يكن من الصعب على الأساليب والطرق الجديدة أن تسير على محملين تحاول من خلالهما وبشكل واضح الانسجام مع متطلبات الدين والانسجام مع الأنماط المتبعة.

أصبح تقليد الأثاث الفخم الموجود في القصر فكرة جديدة رضخ لها الملك بسهولة، إذ إنه كان يشعر بالراحة في الجلوس عليها أكثر من الجلوس على المقاعد الصلبة التي كان يجلس عليها في الأيام الماضية. والجدير بالذكر هنا أنني -وخلال حياتي التي قضيتها في المملكة- لم أستعمل قط الكرسي أو الطاولة أو السرير في منزلي، فقد كنت أفترش الأرض بدلاً من هذه المفروشات غير الضرورية. وبسبب تلك العادة حصلت على نتائج مرضية عندما كنت ألعب الكريكيت، إذ كان بإمكاني الجلوس على الأرض المعشوشبة لساعات طوال في حين لم يكن باستطاعة اللاعبين الآخرين -الذين لم يجدوا مقاعد لهم- الجلوس على الأرض؛ فكانوا يتذمرون من ذلك الوضع غير المريح، وكانوا خلال فترات الراحة التي تتخلل تلك اللعبة يقفون ليتمطوا ويريحوا أجسامهم.

لم يكن ابن سعود إنسانا أكولاً، كما أنه لم يكن لينام سوى ساعات قليلة، علاوة على أنه لم يكن ليشرب إلا من ماء بئرين معينين، لدرجة أنه كان يأخذ معه الماء المعتاد على شربه عندما قام بزيارة إلى مصر وهي بلاد النيل. لكن كان هناك استثناء للتقشف العام الذي ساد على عاداته الشخصية، فكان يستمتع بالطيب، وفي الجلوس حول الأطفال. وكان يحب النساء، الأمر الذي لم يكن متوفراً لكثير من الرجال[1].

كانت أول مرة ألاحظ فيها علامات الكبر تبدو على ابن سعود أثناء الزيارة الرسمية التي قام بها إلى مصر في شهر يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٤٦م. حدث قبل بضعة أيام من توجهه إلى هناك أن كنت جالساً بالقرب منه عند استقباله عامة الناس في قصره. ابتسم في وجهي ابتسامة مميزة لا يمكن أن أنساها، وسألني عما إذا كنت مستعداً للذهاب معه. فكان جوابي: بأنني لم أكن مستعداً؛ لأنني لم أعلم بأنه كان يرغب في اصطحابي معه. وكنت -بشكل عفوي- قد افترضت بأن ليس لي مكان في مناسبة عربية محضة. فأجاب ابن سعود على الفور قائلاً: ستأتي معي، لكن الطقس في مصر سيكون بارداً، وسيكون هناك العديد من الاحتفالات. هل لديك ملابس تناسب تلك المناسبة؟ قلت له: بأن ما كنت أرتديه أثناء قدومي إلى القصر يفي بالغرض ويكفي للذهاب إلى أي مكان. لكنه أرسل لي في مساء ذلك اليوم المسؤول عن المراسم وأرسل معه مجموعة من

(١) ليس في ذلك ما يعارضه، بل إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال في الحديث: «حبب إليّ من دنياكم: النساء والطيب وجعلت قرة عين في الصلاة». أخرجه النسائي وصححه الحاكم.

الملابس لأبدو بها بالشكل اللائق. سمح لي الوقت قبل الرحيل بأن آخذ تلك الملابس إلى أحد الخياطين ليعدلها على نحو يتناسب مع حجمي، إذ كان طول الملك ستة أقدام وربع القدم وكان عريض المنكبين بينما كان طولي خمسة أقدام وثمانية أعشار القدم كما كنت أقل منه حجماً.

استمتعت في كل لحظة من تلك الزيارة التاريخية التي استغرقت أسبوعين، كما استمتع أسد الصحراء خلالها بضيافة الملك الشاب حاكم مصر. في الواقع كانت تلك أول تجربة لابن سعود في التعرف على الماضي المجيد وعلى عجائب العالم المتحضر.

عندما زار البصرة في عام ١٩١٦م كانت بلاد الرافدين في بداية تحريرها من الظروف البدائية الصعبة التي خلفتها السيول والغزو المغولي. لا بد وأن شعر ابن سعود وكأنه طفل جديد في مدرسة قديمة جداً. تميزت ردة فعله للحفاوة في استقباله بالتردد والإحراج المربك. حفز وجوده مخيلة الجماهير التي احتشدت للترحيب به لدرجة أنني شعرت لو أنه أماء بإصبعه للشعب المصري لوجد الشعب المصري فيه الرجل الذي يقوده لفتح دول العالم. كانت تلك تظاهرة مذهلة عن إعجاب الشعب برجل كان قد قضى كل حياته في الصحراء في خدمة العقيدة الإسلامية التي بنى على أسسها مملكة كسبت احترام كافة دول العالم.

بدا في بعض المناسبات الرسمية الملكية، وكذلك في ولائم الاستقبال العامة أن ابن سعود لم يكن مرتاحاً وعلى سجيته: فقد اندهش عندما كان النشيد الوطني

الذي لم يسبق له وأن سمعه في حياته يعزف له. لكن كان هناك ثمة شيء لفت انتباهه بشكل ملحوظ وقدر له مع مرور الأيام أن يترك تأثيراً طيباً على الملك. تجلى ذلك في تجواله بالقطار عبر المناطق الزراعية الخصبة في دلتا النيل الواقعة بين القاهرة والإسكندرية. وبفعل تلك الجولة فكر ابن سعود في إنشاء سكة حديد في المملكة العربية السعودية لتربط العاصمة الرياض بمناطق حقول النفط على سواحل الخليج العربي. ولتحقيق تلك الغاية كرس ابن سعود جهده بحماس بالغ على الرغم من نصيحة خبراء الاقتصاد بعدم جدوى ذلك المشروع. استمر في قناعته إلى أن جاء شهر أكتوبر (تشرين أول) من عام ١٩٥٠م حيث أشرف شخصياً على تدشين الخط الحديدي الذي يبلغ طوله ٦٠٠ كيلومتر الذي يربط الرياض مع الظهران والدمام. ليس بوسع أي إنسان اليوم أن يشك في أن ذلك الخط الحديدي له قيمة بالغة بالنسبة لمناطق قلب الجزيرة من حيث تقليل تكلفة كافة المواد المستوردة والمنقولة إلى العاصمة الرياض. ودون ذلك الخط الحديدي كان من الممكن أن تصل نفقات الخطط الإعمارية إلى مبالغ يفوق الاحتياطات المالية المتوافرة لدى الدولة. ولعل المقياس الذي يدل على حكمة ذلك الرجل هو نمو سكان العاصمة الرياض، إذ ازداد تعدادهم من ٨٠ ألفاً في عام ١٩٤٥م ليصل حالياً إلى ما يقارب من ٨٠٠ ألف. فقد كان الملك مصراً على أن يساهم وبشكل فاعل في ازدهار شامل ينعم به شعبه. لكن راوده شك تعلق بمدى ردة فعل هذا المشروع ومدى توافقه مع أهواء السعوديين؛ لذا أحال فكرة مثل هذا الاعتراض المحتمل على هيئة

العلمـاء وجاء في تقـريرهم أن الطائرات والهواتف بددت كل شكوكـهم المتعـلقة بموضوع إدخال مبتكرات الكفار إلى معقل الدين الإسلامي الحنيف.

قابل ابن سعود حسن ضيافـة واستقبال السلطات المصرية له بأن قدم إلى الملك فاروق هبـة سنوية تقدر بمئتي ألف جـنيه ذهبي -أي ما يعـادل تقريباً مليـون جنيه إسترليني في ذلك الوقت-. لم تؤثر أحداث شهـر يولية عام ١٩٥٢م كما لم يؤثر سقـوط الملكية المصـرية على ذلك الاتفاق. ومن سمـات ابن سعـود أنه عدّ ذلك التزاماً أو ديناً أدبياً لقاء الحفـاوة والكرم الذي استقبل به والذي لن ينساه أبداً. كان من الواضح أنه بعد موته ستجد على الساحـة أمور أخرى إذ كان من المعقول جداً أن لا تستمر تلك المعونة السنوية مراعاة الاحتياجات السياسية العليا.

في تلك الأثناء قام مـحمد نجـيب -الذي قبله الشـعب المصري دون معـارضة زعيماً للحكومة الثورية- بالقدوم إلـى مكة لأداء فريضة الحج، وهناك تم استقباله على أحسن وجه. وقد جسدت زيارته أبرز معالم الود والإعجاب.

كانت الحكومـة المصرية على قـدر جيد من القـوة مكنها من الصمـود في وجه سقـوط أول رئيس لهـا وإحلال مـحله أحد كـبار ضـباط الثـورة والمدعو جـمال عبـدالناصر الذي كـان يعد العـقل المدبر للنظام الجديد. امـتصت حكومـة المملكة العربية السعودية صدمة ذلك التغيير دون انفعال، علاوة على ذلك، تم تمتين روابط الصداقة بين البلدين التي يعود تاريخها إلى الاتفاق الذي أبرم إثر وفاة الملك فؤاد.

شهدت أحداث التاريخ بعض الانسجام الذي تجلى في التحالف السوفيتي البريطاني الذي نجم عن هجوم هتلر على روسيا. لكن يبقى من المثير مراقبة كيف تعاضدت الثورة المصرية ونظام الحكم الملكي في السعودية ووحدتا جهودهما من أجل الإعداد لاتفاق عربي شامل موجه ضد الغرب ومرتبط في الوقت نفسه مع دول المنظومة الشيوعية.

يمكن هنا أن نشير إلى السر دون مغبة الوقوع في التناقض، ألا وهو أنه مهما كان ابن سعود ودوداً وراغباً في الوقوف إلى جانب مصر فلم يكن ميالاً للدخول في مثل هذا المشروع المحفوف بالمخاطر. يمكن أن يكون ابن الملك سعود والرئيس المصري قد أعربا عن نيتهما في الدخول في مجال جديد مجهول لكن بعد أن ترسخ أقدامهما في ذلك الانحدار الزلق سيدركان بأن عواقب جرأتهما لن تكون بالضرورة مثل ما توقعا أو اشتهيا.

دلت هبة ابن سعود التي قدمها إلى الملك فاروق على مياه رائقة يمكن لسفينته أن تبحر بها، كان برنامج زيارته المستفيض بالترتيبات قد أرهقه، لكنه بدا سعيداً وواثقاً في قدرة بلاده على تحقيق بعض الأحلام التي استقاها من جوانب الازدهار في مصر. لكنه لم يكن مسروراً أو متفائلاً بالوضع السياسي الدولي خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية التي يصعب حلها. حيث كانت الحكومة البريطانية وبالضبط قبل مغادرته مصر قد طلبت منه أن يعرب عن موافقته في استمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين وذلك بمعدل ألف وخمس مئة رجل يهودي كل شهر وحتى تنتهي اللجنة الأمريكية البريطانية من دراسة كافة أوجه تلك المشكلة. كان مقرراً لتلك اللجنة أن تقوم في القريب العاجل بزيارة إلى منطقة الشرق الأوسط. أجاب ابن سعود على ذلك الطرح بقوله: إنه نظراً لفشل كافة جهوده السابقة في

المساعدة لإيجاد حل لتلك المشكلة فإنه يفضل أن لا يعرب في تلك المرحلة عن أي رأي محدد، علماً بأنه على استعداد لمناقشة كافة الأمور مع اللجنة المقترحة والمتوقع وصولها قريباً.

كان ابن سعود أيضاً منزعجاً من الوضع في أوروبا وكذلك من الوضع المهيمن الذي كسبه السوفييت. وفي صباح أحد الأيام في مكة التفت إليَّ ابن سعود -وبه شيء من السأم وفي نفسه شيء لا أعرفه- قائلاً: يتوجب عليَّ في الواقع أن أعين شخصاً سواي ليتجادل مع البريطانيين، فمن تقترح؟ ضحك الجميع عندما اقترحت أن يكون ذلك الشخص عبدالله الفضل الذي كان يشغل منصب رئيس مجلس الشورى ونائب رئيس المجلس التنفيذي. والجدير بالذكر أن عبد الله كان حاضراً معنا. وقلت: إنه على الأقل يمكن أن نثق بأنه لن يعبر عن أي رأي حول أي موضوع دون أن يتأكد مسبقاً من موقف الملك وما يجب أن يقال عنه أو يسمعه. أما أنا فكانت لي سمعة مختلة تماماً رغم أنني حظيت بالكثير من الثناء والإطراء على الطريقة التي تصرفت بها في الوسط الرسمي الذي خيم على جولتنا في مصر. علاوة على أنني كنت العضو الوحيد غير الرسمي في الوفد الذي ضم أربعين رجلاً أو أكثر. وكان من الطبيعي أن نفترض أن الحكومة المصرية كانت قد رتبت الزيارة على نحو يمكنها من الاطلاع على آراء الملك وعلى آراء كل فرد من مستشاريه.

ما إن عدنا إلى الحجاز حتى تم إعداد ترتيبات جديدة للسفر إلى الرياض في منتصف شهر يناير (كانون الثاني). كنت متأخراً عن موكب الملك، ولكن عندما وصل إلى مرات وهي آخر محطة قبل الوصول إلى الرياض وجدت سيارات موكب الملك محاطة بعدد كبير من الوجهاء الذين كانوا قد خرجوا من العاصمة الرياض

لاستقباله. وبينما كنت أقترب من الملك سمعته يقول لرجل كان واقفاً إلى جانبه: هذا هو فيلبي. سلمت على الملك فعرفني على ذلك الرجل وقال هذا رشيد عالي الكيلاني. قد مضى على مقابلتي له في بغداد عندما كان وزيراً للداخلية أحد عشر عاماً. ولم يكن من الصعب علي التعرف عليه حتى ولو أنه كان مرتدياً الثياب العربية. تعانقنا وسلمنا على بعضنا بحرارة وخلال الحديث معه تعرض إلى قصة هروبه المذهلة من ألمانيا النازية المهزومة والتي تمت بمساعدة رجال المخابرات الأمريكية والبريطانية والفرنسية إلى أن وصل بأمان إلى المملكة العربية السعودية. كان ذلك إنجازاً رائعاً بالنسبة لرجل مطلوب القبض عليه ومحكوم عليه من قبل المحكمة العسكرية في بغداد بالموت لمشاركته في انقلاب عام ١٩٤١م. وباعتباري صديق قديم له استمتعت كثيراً بصحبته على مدى السنوات التي عقبت ذلك. اللقاء. حرك قدومه المفاجئ إلى بوابة قصر المربع وبصحبته رجل واحد بعض العواطف، إذ كان ابن سعود في تلك اللحظات يتناول آخر فنجان من القهوة قبل الشروع في السفر لأداء فريضة الحج. ومثل باقي الزوار دخل رشيد عالي الكيلاني مع رفيقه إلى مجلس الاستقبال كإجراء عادي. تردد الملك بسبب لطفه أن يبين له بأنه كان على عجلة من أمره. لم يكن الملك ليعرف ما وراء زائره لكنه استشف بأن هناك ثمة شيئاً آخر. وفي النهاية سأله الملك عن الرجل الذي كان بصحبته؟ قال الكيلاني: لا يمكن أن أبوح بذلك إلا لك شخصياً وعلى انفراد. وعليه خرج الناس من المجلس وسبب ذلك حرجاً واضحاً للملك. تصرف الملك بسرعة ومنح ذلك الشخص حق اللجوء السياسي. وعلى الفور أصدر أمراً في إعداد الترتيبات الضرورية لهذا الضيف الرفيع المستوى والمحرج بعض الشيء. بعدها غادر ابن سعود إلى مكة ليواجه تعقيدات الوضع التي كان لا مفر منها.

وصلت إلى المفوضية البريطانية برقية جعلت السفير البريطاني ل. غرافتي سميث يتوجه لمقابلة الملك ومناقشة المسألة معه. لكن على الرغم من الاحتجاجات التي أخذت في بعض الأحيان الطابع فوق الرسمي لم يتم طرد الكيلاني، بل بقي في الرياض ضيف شرف يتمتع بالأفضلية في البلاط الملكي، علماً بأنه لم يخول أي منصب في الحكومة. وبقي الأمر على ذلك النحو حتى فترة قصيرة سبقت وفاة ابن سعود إذ نشب سوء تفاهم بينه وبين الملك الجديد -الذي لم يتقبله على الإطلاق- وأسفرت عن قراره في مغادرة المملكة والعيش في مصر. وبالطبع عندما صدر في بغداد بحقه حكم غيابي بالموت تمت مصادرة جميع أملاكه، لكن ابن سعود عوضه الشيء الكثير عن خسائره تلك. وقد تمكنت عن طريق أصدقاء لي في جامعة كامبردج من تأمين مقعد دراسي لابنه، لكن شركة أرامكو كانت قد بذلت بعض المساعي الحميدة وسبقتني في الحصول على دراسة جامعية لأبنائه في أمريكا.

وبعد وصولنا إلى الرياض مباشرة كانت الهيئة البريطانية الأمريكية المشكلة بخصوص الوضع في فلسطين قد وصلت إلى القاهرة وباشرت أعمالها بمقابلة الأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام، ومن ثم توجهت إلى فلسطين. ذكرت بعض التقارير أن أعضاء اللجنة سيشكلون جماعات مستقلة، كما سيخصص لكل جماعة بلد عربي معين تقوم بزيارته وكتابة تقرير عن مرئياتها فيه.

وقبل إتمام هذه الترتيبات وخلال الجلسات المسائية للمشاركين في الرحلة إلى الرياض بدأ العمل على إعداد مذكرة توضح وجهات نظر ابن سعود. تم في تلك الجلسات الأخذ في الحسبان الاحتجاجات البريطانية على مقاطعة السعودية للبضائع الإسرائيلية، إذ كان البريطانيون ينظرون للمقاطعة على أنها تعكس تصرفاً غير ودي

تجاه الرعايا البـريطانيين -سبق وأن صادقت الجامعـة العربية على سياسـة المقاطعة وطالبت الدول العربية الأعضـاء في تطبيقها- لكن كانت المملكة العـربية السعودية في تلك المرحلة الـدولة العربيـة الوحـيـدة التي وضـعت تلك القـرارات مـوضع التنفيذ.

كان لدي شعـور بأنه لو طلبت بريطانيا وأمريكا من ابن سعـود أن يتعاون على الصعيد الرسمي في إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية، سواء عند تلك المرحلة أو في مراحل سـبقتـها، لكان بالإمكان تجنب الكثـير من المشاكل التي أفـرزتها القضـية الفلسطينية. وباعتبار أنهما لم تفعلا ذلك تعمد ابن سعود أن يترك الموضوع لجامعة الدول العربية.

واستجـابة لاقتراح ابن سعود قـمت بإعداد مذكرة بخصـوص موقف وتصرف الدول العربية حيال المشكـلة الفلسطينية وقدمتها إلى الهيئة البـريطانية الأمريكية، كما تم إرسـال صورة عن تلك المذكرة إلى السيد تريكوف لي. وفي الثـامن عشر من مارس (آذار) رجعت من زيارة قصيرة قـمت بها إلى جدة وتصادف رجوعي مع المحادثات التي كان يجـريها الملك مع لجنة فرعية مـتفرعة عن الهيئـة البريطانية الأمريـكية والتي كـانت قد قـدمت من بغداد عن طريق البـحرين في ذلك الـيوم نفسه. ضمت تلك اللجنة الفرعية كلاً من السير سنفلتون والسيد جي منغهام بولار إضافة إلى زملائهم البريطانيين وهم السيد بكستون والسيد هاسولد بيللي من وزارة الخارجية البريطانية الذي كـان يعمل أمين سر لتلك اللجنة. والجدير بالذكر هنا أنه بعد مرور عشر سـنوات أُرسل السيد بولار إلى جدة بصفته سفـيراً بريطانياً خلفاً للسيد جي كلينتون بلهام. ولكن بعد بضعة أسابيع فقط أجبره المرض على التخلي عن ذلك المنصب.

مكثت تلك اللجنة في الرياض مدة يوم كامل، كان بمنزلة تجربة عسيرة شاقة للأطراف المعنية بمن فيهم أنا. انقضت معظم ساعات صباح ذلك اليوم في مقابلة الملك الذي كان يتلقى العون والمساعدة من كبار مستشاريه بمن فيهم الأمير فيصل وحافظ وهبة -ممثل السعودية في لندن-. وكان كلاهما قد قدما من لندن قبل يوم أو يومين من حدوث تلك اللقاءات.

ضمت اللجنة أربعة أشخاص جلس كل اثنين منهم إلى جانب الملك فكان أمام كل اثنين مقعد لجلوس المترجمين وآخر لسكرتير يتلخص عمله في تدوين كل الوقائع بحذافيرها. أما نحن البقية فجلسنا على جانبي ذلك المجلس الكبير. وبعد تبادل الترحيب بدأ العمل الجاد في طرح الآراء وطرح الأسئلة والإجابة عنها. ولم يمض وقت طويل حتى أتى فيصل وجلس إلى جانبي وسألني عن رأيي بما كان يجري. قلت له ليس هناك ثمة شيء يجري على الإطلاق: فلم يكن يصل إلى اللجنة نصف ما كان يقوله الملك، كذلك لم يصل إلى الملك ولو حتى نصف ما كانت تقوله اللجنة. وعلى ما يبدو كان لديه الإحساس نفسه، عندها تدخل وقاطع مجريات الأمور وهمس في أذن والده. وقد أسفر ذلك الهمس أن طلب مني أن أقوم بأعمال الترجمة حتى نهاية الجلسة. كان مشهداً يرثى له لطرفين مجدين يحاول كل واحد منهما فهم ما يقوله الطرف الآخر عن طريق مترجمين لكن غير أكفاء لتلك المناسبة. المشكلة الحقيقية هي أن المترجمين في تلك الفترة كانوا متمكنين من نقل كلام الملك إلى الإنجليزية أكثر من تمكنهم من نقل الإنجليزية إلى العربية. كانوا قد تلقوا علومهم في السودان وفي دول أخرى. ويمكن أن أضيف هنا أن جهلهم العام في الأمور السياسية المتعلقة بالموضوع المطروح كان بمنزلة عقبة في محاولتهم القيام بأعمال الترجمة لشخصية مؤيدة للقضية ومحيرة ومفاوضة مثل شخصية ابن سعود.

يمكن أن يتخيل القارئ أن باقي الجلسة استمرت بشكل سلس إلى أن قام الملك لأداء صلاة الظهر. أما أنا وبقية الحاضرين فتناولنا غداء فاخراً على الطريقة الأوروبية بضيافة ولي العهد. أمضينا ساعات عصر ذلك اليوم في التجوال في معالم المدينة وانتهى التجوال بحفلة شاي في الهواء الطلق في حدائق الناصرية التي تحولت فيما بعد إلى قصر ملكي فسيح يعيش فيه الملك الحالي والذي يمكن أن تكون تكلفة بنائه وتأثيثه بلغت ما يزيد على أربعة ملايين جنيه إسترليني. والآن يتم هدمه لإعادة بنائه وتوسعته بتكلفة تصل إلى ضعف ذلك الرقم.

وبعد غروب الشمس تناول الجميع طعام العشاء على مائدة الملك، وعندما استأذن أعضاء اللجنة من الملك نظراً لسفرهم المبكر جواً في صباح اليوم التالي تم الاقتراح على أنه من الأفضل لأعضاء اللجنة عقد جلسة أخرى مع الوزراء المعنيين في التداول حول النقاط التي تم التوصل إليها وذلك في جلسة صباح اليوم نفسه. وعليه توجهنا إلى مقر الضيافة الملكية وهناك استعرض يوسف ياسين البنود الرسمية لذلك الاجتماع التي جاءت في حوالي اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة صفحة مكتوبة باللغة العربية. وكان من الواضح أن الترجمة الشفهية لتلك الوثيقة -ناهيك عن التدخلات ووجهات النظر التي ستطرح للتوصل إلى بيان مشترك يوافق عليه الجميع- ستستغرق طيلة ساعات تلك الليلة. قضينا بعض الوقت في مناقشة ما يجب عمله، وتم الاتفاق على أن ترجمة كتابية لتلك الوثيقة ستفي بمتطلبات اللجنة، وأنه يمكن أن تكون الترجمة جاهزة عند الساعة السادسة صباحاً وهو الموعد المحدد لإقلاع طائرة الوفد. كانت المهمة كبيرة، والسؤال هنا من سيقوم بإنجاز الترجمة؟ ومن أجل راحة الجميع تطوعت بأن أنجز المهمة في الوقت المحدد، وذهبت إلى منزلي وفي جعبتي الوثيقة المراد ترجمتها. بدأت أطبع وتمكنت عند حلول

الساعة الخامسة صباحاً من إنجاز خمس نسخ مطبوعة. ولم يأتِ رشدي ملحس السكرتير السياسي المساعد إلا في الساعة السابعة والنصف ليأخذ الصفحات المترجمة. بعدها غادرت اللجنة الرياض ومعها شيء يدل على المعاناة التي قامت بها.

إذا كانت قرارات الأمم المتحدة الصادرة في عام ١٩٤٧م والحرب العربية الإسرائيلية في العام التالي تعد من المساهمات التي قدمتها اللجنة البريطانية الأمريكية لإحلال السلام العالمي، فلا شك أن الوقت والجهد اللذين بذلهما الوفد في الرياض قد ضاع سدى.

ترك رحيل اللجنة المجال مفتوحاً للقيام بأعمال ومنجزات محلية، وتم اختيار اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس (آذار) -وهو يوم الاعتدال الربيعي- لإظهار نوايا الحكومة المتعلقة بالعام الأول من تأثير إنتاج النفط على اقتصاد المملكة العربية السعودية. وقد قُدرت عائدات النفط لذلك العام بـ ١٣,٢ مليون جنيه، في حين بلغت نفقات الدولة لنفس تلك الفترة ١٧,٥ مليون جنيه، ويشتمل هذا الرقم أيضاً على مليوني جنيه من الديون المستحقة التي لم تدفع بعد. ومنذ ذلك الحين فصاعداً تم جعل ذلك وسيلة لتأمين قروض دون فائدة مثل جزء منها على الأقل المبالغ المستحقة التي لم تدفع من رواتب موظفي الدول المعينين على مراتب متدنية. غطى أكبر بند من بنود النفقات متطلبات الحكومة ومتطلبات المواصلات الخاصة بالقصر الملكي التي شملت قيمة قطع الغيار واستئجار السيارات وتأمين الإطارات الجديدة، إذ بلغ ذلك مليوني جنيه.

والموضوع التالي من حيث الأهمية كان موضوع استقبال وضيافة الملايين من الناس. وقد خصص لذلك مبلغ متواضع لمجال التعليم بلغ ١٥٠ ألف جنيه.

والغريب في الأمر أنه لم يخصص أي مبلغ للخدمات المدنية التي يفترض بأن نفقاتها كانت قد أدرجت في مجمل المبلغ الموضوع تحت تصرف الملك للإنفاق على الأجهزة الإدارية في مناطق الرياض ونجد، والبالغة أربعة ملايين جنيه. وبالطبع لم يكن هذا المبلغ خاضعاً لأي تدقيق رسمي للحسابات ولا لإشراف من أي نوع آخر، كما أن الميزانية تضمنت بندين آخرين تميزا بنفس هذا القدر من الاستثناء. أما بالنسبة لمصاريف الدفاع فقد خصص لها في ذلك الوقت ٨٠٠ ألف جنيه علماً بأن وزارة الدفاع وعلى مدى عقد من الزمن كانت من أغنى الوزارات. إذ وصل احتياطها المالي للعام ١٩٥٤ / ١٩٥٥م إلى خمسين مليون جنيه. وبالمناسبة نقول: إن الحكومة الأمريكية كانت قد أعلنت عن استعدادها لتقديم قروض إلى المملكة بلغت خمسة وعشرين مليون جنيه، ولكن لم يكن ذلك القرض على شكل سيولة مالية، بل تعلق بأمور عينية مثل: تقديم خمسة آلاف طن من الأرز والسكر، وعشرين ألف طن من القمح والدقيق وسيارات عسكرية واصلة إلى موانئ المملكة ومسحوبة من المستودعات الأمريكية العسكرية، إضافة إلى كميات من الفضة لسك المزيد من النقود. أما المادة التي تم استثناؤها من المواد التي طلبتها المملكة فكانت الذهب والتي على ما يبدو اشترط أن يتم الحصول عليها مقابل مبالغ تدفع من العائدات النفطية.

تمكن الملك خلال فصل الربيع من البدء في مشاورات تمت في الرياض بخصوص المشروع الذي تبلورت فكرته في مصر والمتعلق بإنشاء سكة حديد تربط العاصمة الرياض مع المناطق في ساحل الخليج العربي. كان وصول ثلاثة من كبار المسؤولين من شركة أرامكو -في اليوم الثالث والعشرين من شهر مارس عام ١٩٤٦م وهم: ماكفرسون، وفلويد أوليغر، وغاري أوين- بمنزلة نقطة تحول مهمة

في التطور الاقتصادي السعودي. وفي خلال أقل من ست سنوات تم إنجاز أعمال تتعلق بعمليات مسح للمناطق الصحراوية وما فيها من عقبات ووضع جداول حسابية اقتصادية ومالية دقيقة، إضافة إلى إنشاء سكة الحديد والمحطات والأمور الإضافية الأخرى المتعلقة بالمشروع. ويعود الفضل في كافة تلك الإنجازات لعزيمة الملك؛ ولعل السيد غلويا هو العقل المفكر في المشروع، وأما الخبراء الأمريكيون الآخرون العاملون معه فقد حظوا باهتمام ملحوظ بسبب المنجزات التي حققوها تلك التي بلغت في ضخامتها أكثر مما تلقوه من عناية بالفعل. لم تكن حكومة المملكة العربية السعودية على الإطلاق متجاهلة للجهود الكبيرة التي قدمها الأجانب المتواجدون على أراضيها وبشكل خاص جهود الأمريكيين.

وعلى النقيض من هذا الإنجاز العظيم كانت الطريقة التي تعالج بها الحكومة السعودية مشاريع أخرى -خاصة بإنشاء سكة الحديد- مخيبة للآمال ومقصوداً بها تعويق إنجاز العمل؛ لذلك قام ابن سعود نفسه بعد أن تشجع لنجاح مشروعه في سكة حديد الرياض بأن أصدر أوامره في البدء وبأسرع وقت في إنشاء الخط الحديدي الواصل إلى مناطق البحر الأحمر. ولم يتأخر غلويا في الشروع في مسح المناطق التي سيمر بها الخط الحديدي من الرياض وحتى المدينة مروراً بمناطق القصيم ومرات ومنها إلى ينبع وجدة مع خط متفرع يصل إلى مكة، وقد بلغت المسافة الإجمالية لذلك الخط الحديدي ألف ميل[1]. لكن أعمال المسح هذه لم تنته عندما حان أجل الملك. كما أن انعدام حماس الملك ترك المشروع تحت رحمة الأمزجة الشخصية المتعلقة بالأمور المالية التي كانت تتردد على المشروع بشكل

(١) نسخة أصلية من هذا المسح والتقرير محفوظة بمركز الوثائق بدارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

متقطع. ومع نهـاية عام ١٩٥٤م انتهى إعداد الترتيبات وأصـبح الشروع في العمل في ذلك الخط الحديدي جاهزاً، لكـن الاعتمادات المالية الفـردية للمشروع لم تكن واردة في الميزانية.

ومما لا شك فـيه أن ذلـك الخط الحديدي سـيـستكـمل في يوم من الأيام لكن استكماله سيتعرض للعديد من عقبات المماطلة وشح الأمور المالية. أما فيما يتعلق بخط سكة حديد الحجـاز فالأفضل عدم الإسهاب في الحديـث عنه. كان موضوع إعادة الخط الحديدي بين المدينة ومعان مطروحـاً على بساط البحث منذ ثلاثين عاماً تخلل تلك الفترة صدور بيـانات تفيد بأن إجراء معيناً سيتخـذ للمباشرة في العمل به. ومع ذلك لم يصل الأمـر إلى حد القـيام بعـملية مـسح مفـصلة بالرغم من الأوامر الصارمة التي صدرت عن ابن سعود قبل عامين[1]. كانت أموال باهظة قد أنفقت على اللجان المختلفة. التي كانت تجتـمع في مواقع مختلفة لدراسة التقارير المتعلقة بتلك المشكلة. لم يكن أمام المشروع أية عقـبات أو صعوبات فنية كما علم أن تكلفه المشروع حـسب التقديرات الأولية ستصل إلى حوالي أربـعة ملايين جنيه إسـتـرليني: وهو مـبلغ بإمكان الحكومـة السـعـودية أن تفي به بـغض النظر عن إمكانيات الدول الأخـرى المعنية بالمشروع مثل: سـوريا والأردن. ومن المحتمل أن يقع نصيب الأسد من التكلفة على الجزء القصـير نسبياً من سكة الحديد الواقع في أراضي الأردن. علاوة عـلى أنه خلال الحرب كـان قد تم تفكيك الخـط الحديدي الواقع في جنوب عمان ليعـاد بناؤه بين معان وميناء العقبـة. ذكرت بعض التقارير في شهر ديسـمبر (كانون الأول) من عام ١٩٥٥م أن لجنة ثلاثية كـانت قد غادرت دمشق متوجـهة إلى معان لفرز البدء في أعمـال الخط الواصل بين دمشق ومعان.

(١) أجري أخيراً مسح أولي في عام ١٩٥٧م. (المؤلف).

ويمكن أن يكون من دواعي سرورنا لو أن الخط الحديدي هذا يصبح جاهزاً للتشغيل مع البدء في طبع هذا الكتاب.

تم في نهاية شهر مارس (آذار) إتمام كافة الأعمال المستعجلة وأصبح بال الملك خالياً من تلك الهموم إذ التفت للاستمتاع بمناظر الربيع والبحث عن الكمأ في الصحراء وممارسة هواية الصيد. وفي أوائل شهر أبريل (نيسان) خرجنا إلى منطقة الخفس الواقعة على الطرف الغربي من صحراء الدهناء والتي تبعد حوالي ١٤٠ ميلاً عن الرياض. كانت تلك منطقة منخفضة، تراكمت فيها كافة أحجار القفار من كل الجهات، لكنها الآن أصبحت مغطاة بأعشاب وزهور الربيع. وفي منطقة صحراوية مجاورة لها، كان أحد الطيارين الأمريكيين الخاصين بالملك قد حدد موقعها إذ خصصت للزوار الذين كانوا يأتون إليها بأعداد كبيرة ومن بينهم الدبلوماسي البريطاني المقيم في منطقة الخليج والمستشار السياسي في البحرين وهما بريور وغلوي على التوالي. إضافة إلى أعداد كبيرة من الأمريكيين المهتمين بالنشاطات المختلفة التي يمكن ممارستها في المملكة.

كان الملك يخرج كل يوم للتجوال في المناطق الصحراوية باحثاً عن الطرائد، وكان ذلك مفيداً جداً لحالته الصحية، علماً بأنه لم يوفق بالصيد الوفير. كانت عائلة الملك وإقدامها الباسل بصفتهم صيادين تجوب القفار على ظهور السيارات. بدا أن طائر الحبارى قد تعلم أن يتوارى عن أنظار الصقور التي كانت على ظهور العربات، كما توارى عن أنظار الرجال الذين كانوا يحملون البنادق في سياراتهم. حدث أن شاهدت أكياس صيد حصيلة الأيام الثلاثة الأولى التي قام بها الملك. كان عددها في اليوم الأول ستة عشر كيساً، وفي اليوم الثاني ثمانية، وفي اليوم الثالث خمسة، وكانت كلها من طيور الحبارى. لكن لم أشاهد ضمن حصيلة الصيد أي أثر للغزلان.

لم أرافق الملك في حملة الصيد تلك، بل آثرت أن أهتم بالأمور الجغرافية الخاصة بمنطقة لم يسبق لي أن زرتها من قبل. قبل أن نغادر الرياض كانت الطيور المهاجرة تأتي بأعداد كبيرة، وكان من بينها طيور السنونو، والسمان، والخطاف، وصقور العوسق، وطيور أخرى تدعى (آكلة النمل). علاوة على ذلك كانت هناك الطيور الأوروبية التي تدعى (آكلة القمح) وأنواع أخرى من الطيور الصحراوية إضافة إلى طيور الغداف -وهو غراب أسود- ونوعان من الصقور وطيور الطيهوج وما شابه ذلك. كان الناس يبدون اهتماماً بالغاً بالحيوانات الصحراوية التي تظهر في فصل الربيع، لكن الصيادين كانوا -في معظم الأحيان- يعودون وجعبهم فارغة. حدث أن استمتعنا جميعاً بتجربة حدثت ليلة الحادي عشر من نيسان حيث كنت جالساً في خيمتي أطبع على آلتي الكاتبة آخر فصل من كتابي بعنوان (خلفية دين الإسلام) إذ تحدثت في ذلك الفصل عن المؤرخين العرب في العصور الوسطى. كنت أقوم بالطباعة تحت ضوء الفانوس الذي يعمل بالكيروسين وفجأة ودون أية مقدمات طارت الخيمة في الهواء وهبطت على مسافة مئة ياردة. فقد جاءت ريح صرصر حاملة معها أمطاراً ورمالاً من أراضي الصحراء. صبت تلك العاصفة جماح غضبها علي وأنا جالس لا حول لي ولا قوة وكنت مرتدياً ملابس صيفية. وقد حملت الريح معها أوراقي وغطت الرمال ومياه المطر الآلة الكاتبة وانقلب المصباح، لكن من حسن الحظ انطفأ نوره على الفور بفعل الريح. وكل ما كان بوسعي عمله هو الإمساك بالسجاد في أرض الخيمة ولفه حولي لأجعل ظهري في وجه الريح. وبدأت ارتجف من البرد وأنعى حظي على جهدي الذي هدر وكان بمنزلة ثمرة عمل دام لعدة أسابيع. وهكذا استمرت العاصفة بريحها ومطرها في الهطول عليَّ.

دام نشاط العاصفة لمدة نصف ساعة لكنها تلاشت بالسرعة نفسها التي بدأت بها.. مخلفة فترة قصيرة من البرد القارس الذي لم يسبق لي أن شاهدته طيلة حياتي في الصحراء. أطاحت العاصفة بكل خيمة من خيام المعسكر بما فيها مضارب الملك التي كانت معدة على أكمل وجه. لكن من حسن حظه وحظنا أيضاً -عندما تجمعنا حوله لمناقشة ما حدث- أن كان للملك عربة كبيرة مغطاة بشراع جلسنا فيها إلى أن هدأت العاصفة وتحسنت درجة الحرارة في الخارج. أكد لنا ابن سعود أنه لم يشهد في حياته مثل تلك العاصفة الرملية. أما أنا فسبق لي أن شاهدت واحدة في منطقة الشوكي في عام ١٩١٨م، كما شاهدت واحدة أخرى في منطقة الخفس: وكانتا -إلى حد ما- مشابهتين لتلك العاصفة. والغريب في الموضوع أن الطائرة الملكية التي كانت مقيدة بالحبال على أرض المهبط قاومت العاصفة لدرجة أن طاقمها احتمى تحتها من العاصفة. قال غرانت قائد الطائرة الأمريكي -إذ كان لديه خبرة واسعة في الطيران الحربي- إنه: لا بد وأننا كنا أثناء هبوب العاصفة في مركز ذلك الإعصار.

كان مقرراً في صباح اليوم التالي أن أغادر معه إلى جدة. استيقظت صباح ذلك اليوم وبدأت البحث عن أوراقي لكن وجدت نصفها فقط، إذ كانت معلقة على الشجيرات والأشجار التي اكتسحتها العاصفة.

كانت رحلتنا الجوية التي طرنا بها فوق منتصف أراضي المملكة رحلة ممتعة واقترحت على غرانت أن يتحول عن خط الرحلة المباشر ليحلق فوق منجم الذهب في منطقة مهد الذهب، لكنه قال: بأن الوقود في الطائرة لا يكفي لاجتياز أي مسافة إضافية. على أية حال استمتعت بمشاهدة بعض المناطق مثل الزلفي، والمذنب، وعنيزة، والرس. وأثناء التحليق مررنا فوق قريتين كان بإمكاني التعرف

عليهما بسهولة وهما قرية مسكة وقرية ضرية. ورد ذكر اسم هاتين القريتين على الخرائط القديمة التي أعدها داوتي بناء على ما سمعه من أقاويل عنهما نقلت من جيل إلى جيل. لكن هاتين القريتين حذفتا مؤخراً من نسخة الخرائط الصادرة عن إنترناشيونال ميليتون لعدم توفر ما يثبت صحة الأقاويل المنقولة عنهما. لم يكن داوتي مخطئاً في أي شيء يقوله عن الجزيرة العربية؛ ولذا كان من دواعي سروري أنه كان بمقدوري أن أؤكد وجود هاتين القريتين الغامضتين على الخريطة الجغرافية. وبعد بضع سنوات وبالتحديد في عام ١٩٥٠م قمت بزيارة فعلية لهاتين القريتين وقضيت ليلة في كل واحدة منهما لأؤكد على صدق ما شاهدته من الطائرة.

كان خلف هاتين القريتين قفار تعصف بها الريح، وكان فيها صخور بركانية تناثرت أصلاً من منطقة حرة كشب وهي منطقة ممتدة على مدى البصر بأشكالها المخروطية المتشامخة نحو السماء. ولأتمكن من رؤيتها وتفحصها جلست في المقعد المجاور لقائد الطائرة، لكن فجأة شاهدت منطقة سوداء متناهية ممتدة من الشمال ومتجهة نحو الجنوب. كنت في تلك اللحظة لوحدي في غرفة قيادة الطائرة لأن غرانت كان قد شغل جهاز القيادة الأوتوماتيكي وذهب ليأخذ قسطاً من الراحة. ناديت عليه ليرى ما شاهدته. قلت له لا بد وأن يكون ذلك طريقاً ما، لكن لا يمكن أن يكون هناك طريق لو كنا قد سلكنا الاتجاه المعد أصلاً لرحلتنا. تفاجأ غرانت ونظر من النافذة ليرى في الأسفل قرية متوسطة الحجم. كان بإمكاني التعرف عليها بسبب البحيرة التي كانت تكثر حولها طيور القاوند. كانت تلك منطقة منجم مهد الذهب. عندها أدركنا أننا كنا منحرفين عن خط سيرنا بحوالي خمسين ميلاً. كان حدوث مثل تلك الأخطاء أمراً عادياً في تلك الأيام وأستطيع أن أذكر تجارب مشابهة مررت بها خلال الرحلات الجوية التي قمت بها في مناطق

الجزيرة العربية. كانت معرفتي بالتضاريس الأرضية معينة جداً لقادة الطائرات. وبالمناسبة أقول: إن الفضل في أن سجل الخدمات الجوية لهؤلاء الطيارين، وكذلك للفريق الأمريكي للعمليات الأرضية كان نظيفاً يعود للخطوط الجوية السعودية، إذ لم تحدث لهم على مدى العشر سنوات الماضية أي حادثة مميتة أو أي حادث طفيف مؤسف.

وبعد أن تعرفنا على موقعنا تحولنا عن خط اتجاهنا لنجتاز مناطق السفينة والسوارقية التي كان السيد بيرتون أول من زارها عندما قام برحلة الحج في عام ١٨٥٣م. يعمل بيرتون الآن في اتحاد المناجم السعودية بصفته خبيراً في اكتشاف مصادر المياه. مررنا أثناء التحليق فوق الجبال لنصل إلى سواحل البحر الأحمر وجدة.

قضيت الأشهر الثلاثة والنصف التي تلت تلك التجربة بعيداً عن السعودية حيث زرت مصر وإنجلترا وويلز. وفي التاسع والعشرين من يولية (تموز) عدت إلى جدة وتصادفت عودتي مع اليوم الأول من شهر رمضان لعام ١٣٦٥هـ.

بعد مرور أسبوعين عدت إلى الرياض ووجدت الملك مشغولاً في العديد من مشاريع التنمية. كان عبدالله السليمان قد رفض القرض الأمريكي البالغ ٢٥ مليون دولار لتغطية نفقات المواد الغذائية، إذ كان في تلك الفترة يقوم بجولة في الولايات المتحدة الأمريكية لكنه على أية حال تمكن من التوقيع على اتفاقية للحصول على قرض بعشرة ملايين دولار تدفع نقداً إلى الخزينة السعودية، وذلك لتلبية متطلبات مشاريع مختلفة مثل: محطة كهربائية لإنارة مدينة الرياض، وبناء مستشفيات في الرياض والطائف، وتحسين ميناء جدة على المدى البعيد، علاوة على بناء رصيف داخل البحر لتفريغ حمولة السفن وإنزال الركاب.

أصر الملك على أن الأفضلية يجب أن تكون لبناء سكة الحديد التي فكر فيها. وعليه تم إعداد اتفاقيات منفصلة مع شركة أرامكو على أساس أن يتم تمويل ذلك المشروع من قبلها، وقدرت تكلفته بـ ٣٠ مليون دولار. ومن وجهة نظري أرى أن أهم مشاريع التنمية التي كان يجب الاعتناء بها، في تلك الفترة كان الحظر الذي فرضه الملك على شركة ميشل كوتس التي نقلت إليها كافة أسهم الشركة الشرقية المحدودة، إذ جاء ذلك الحظر نتيجة للمباحثات التي تمت مع السيد ليونار الدرك والتي بدأت في القاهرة في شهر كانون الثاني الماضي وانتهت خلال فترة العطلة التي قضيتها في لندن. أصبحت الآن شركة ذات مصالح عالمية واعتمادات مالية كبيرة تعمل على تأمين متطلبات التنمية في السعودية بدلاً من الشركة السابقة ذات رأس المال المحدود.

مرت الذكرى الألفية الثانية على نزول قوات يوليوس قيصر في بريطانيا دون أن يشعر بها أحد في الجزيرة العربية؛ لأن الحكومة كانت منشغلة في أمور أخرى. أصبح رشيد عالي الكيلاني عضواً في الأوساط الحكومية المحلية. كان الملك قد عهد أمر نقل أسرته ومن يعيلهم والبالغ عددهم حوالي سبعين شخصاً إلى عناية الحكومة البريطانية ليتم نقلهم من أحد الموانئ الإيطالية إلى الإسكندرية، ومن هناك يتوجهون إلى قصوره الفخمة في الرياض.

حدثت مؤخراً بالقرب من الحدود العراقية حادثة لافتة للانتباه، حيث ذكرت التقارير الواردة من هناك أن كميات كبيرة من المياه تدفقت من أحد الآبار الصحراوية هناك، وغمرت ما لا يقل عن ١٣٠ خيمة لقبيلة الظفير، كما غمرت مركزاً صغيراً للشرطة في أحد المناطق المجاورة. لم يكن بمقدوري التأكد من تفاصيل ذلك الحدث الذي سرعان ما تلاشت أصداؤه وسط المشاغل الروتينية

للحكومة التي ما زالت جلساتها تتم بشكل روتيني مثل روتين كافة القوانين المتبعة في منطقة الخليج. كانت الجلسات تعقد ثلاث مرات في اليوم يتبعها مشوار على الأقدام يقوم به الرسميون في عصر كل يوم باتجاه مزارع الأعشى التي هي من أملاك محمد الابن الثالث للملك. قيل لي في إحدى هذه الجلسات إن الزعيم الفلسطيني موسى العلمي تقدم بشكوى خطية إلى الملك قال: فيها إن دعمي العلني لفكرة تقسيم فلسطين كحل ممكن ووحيد للمشكلة الفلسطينية يمكن أن يخلق انطباعاً بأن الملك نفسه مؤيد لمثل هذا الحل. لكن الملك كان على درجة من الحكمة منعته من الانجراف وراء مثل تلك الأساليب. ربما كان هو وابنه منصور مهتمين في تلك المرحلة في مشروع تتولاه الحكومة بتكلفة ٨٥٠ ألف دولار ومتعلق بمعدات من الجيش الأمريكي وبمستودعات موجودة في مطار الظهران سبق أن قام شخص يدعى نسيب السباعي بفحصها نيابة عنهما. سأتحدث عن السيد السباعي في موضع آخر من هذا الكتاب.

وأخيراً جاءت نهاية شهر رمضان في اليوم السابع والعشرين من أغسطس (آب) وهو اليوم الذي شهدت فيه بريطانيا أقسى موجة برد وأعنف هطول للأمطار لن تنساه ذاكرة البشر: إذ بلغ هطول الأمطار ضعف المعدل المعتاد، رافق ذلك درجة حرارة بلغت ضعف معدلها المتوسط. وبالطبع كان من الممتع سماع نشرة الإذاعة البريطانية وهي تقول بأن موجة الحر في بريطانيا وفي أجزاء أخرى من العالم بلغت الثمانين والتسعين درجة. في حين لم نشهد على مدى الأشهر الستة من فصل الصيف درجة حرارة بلغت أقل من مئة درجة، لكن غالباً ما كان الحد الأقصى للحرارة يصل من ١١٥-١٢٠ درجة. يمكن فقط للناس الذين لم يقدر لهم أن يعيشوا موجة الحر هذه خلال أيام شهر رمضان القاسية أن يتخيلوا محنة

الصائمين. لكنها في الواقع ليست سيئة للدرجة التي يمكن أن يتصورها شخص ما؛ إذ كانت ساعات النهار تشهد جفافاً بينما تشهد ساعات الليل شيئاً من البرد النسبي. وفي الواقع يمكن للشخص أن يشعر بعدم الارتياح في جدة والظهران بسبب ارتفاع رطوبة الجو.

وفي آخر يوم من شهر أغسطس (آب) انتهت محاكمة نيورمبرغ بعد معاناة دامت لمدة ٢١٧ يوماً، وصدر إعلان جاء فيه أنه سيعلن عن الحكم في وقت لاحق. وفي اليوم الأول من شهر أكتوبر (تشرين أول) وقف مراقب الأخبار أمام الملك ليقرأ عليه النشرة اليومية، لكن ابن سعود أوقفه على الفور وأصدر له أوامر مشددة منعه بموجبها عن معاودة ذكر موضوع المحاكمة في مجلسه. وقال: «إن المسالة برمتها تثير اشمئزازي. فلم تشهد السجلات التاريخية مثل تلك المعاملة التي تلقاها عدو منهزم، كما أنه لا يمكن للقانون ولا للعقل أن يبرر مثل تلك المعاملة». كما كان الملك مستاءً من الأخبار التي تزامن وصولها مع ذلك الحدث والتي مفادها أن السلطات البريطانية كانت قد اعتقلت كامل الكيلاني أخو رشيد عالي إضافة إلى عدد آخر من المنشقين العراقيين وسلمتهم إلى الحكومة العراقية لمحاكمتهم بتهمة الخيانة أثناء الحرب. أثرت نتائج ذلك الحدث -وكذلك الأمور التي ترتبت على الحرب العالمية الثانية التي اشتملت على تعويضات مالية تدفعها الدول المهزومة للدول المنتصرة وعقوبات أخرى إضافة إلى التجاهل العلني من قبل الدول المنتصرة للمخاطرة الحقيقية التي تواجههم والتي تمثلت في هيئات ولجان متعنتة- على الملك وجعلته متكدراً بدلاً من أن يكون متفهماً. علاوة على أن السعودية لم تعانِ خلال أيام الحرب لكنها نظرت للحرب على أنه خير غير مباشر، والفضل في ذلك الخير يعود إلى السخاء والمعونة التي تلقتها المملكة من أمريكا

وبريطانيا. لم تكن الموارد الطبيعية للمملكة قد وصلت إلى مستويات تجعلها مستهدفة من قبل إستراتيجيات الدول العظمى، لكنه من المؤكد أن حرباً أخرى ستحفز الحلفاء الغربيين على دعم اقتصاد السعودية على نحو سخي خاصة إذا حدث بعض التصادم مع منظومة الدول الشيوعية. وهذه نقطة لم ينظر إليها ابن سعود على أنها مستحبة فحسب، بل محتومة وواقعة لا محالة.

كان من غير المجدي المجادلة مع ابن سعود والقول له بأن دول العالم قد تعبت من الحرب، وأن مثل تلك الكارثة لن تحدث مرة ثانية وربما تحدث على أيام جيل جديد لم يجرب ويلاتها. كان ابن سعود يعتقد أن أمريكا وحلفاءها يمتلكون تفوقاً عسكرياً ملحوظاً على دول العالم الشيوعي -وفي ذلك إشارة إلى القنبلة التي دمرت هيروشيما وناجازاكي- وأنه من الحماقة تجاهل تلك الحقيقة. كما أنه كان مقتنعاً بأن أمريكا وحلفاءها سيتصرفون بالسرعة التامة. وعندما أعربت عن قولي بأن تلك الفكرة هي فكرة خاطئة راهنني بأنه سيدفع لي ثمن سيارة مقابل أن أدفع له ثمن سيارة إذا أخطأت واندلعت الحرب في الربيع القادم. قبلت الرهان لكنني لم أذكره أبداً بأنه قد خسره كما أنه لم يتذكر بأن عليه أن يدفع الرهان لي.

ومع مرور السنين وما رافقها من نقد وقدح بسبب الحرب الباردة تغير ابن سعود وأصبح أكثر حزناً فلم يعد بإمكانه استيعاب عقلية العالم الاستعماري الذي كان يفتش عن ذرائع ومسببات للحرب أكثر من تركيزه على امتلاك قوة ضاربة.

كانت الحياة في قصر الحكم شبيهة بأحوال الطقس في بريطانيا الذي كانت تتخلله فترات من الكآبة وفترات من شروق الشمس. وفي أحد الأيام وعند نهاية شهر سبتمبر (أيلول) أقيمت في القصر وليمة احتفالاً بتوقيع اتفاق تعاون مستقبلي

بين الحكومة وشركة الطيران الأمريكي تي دبليو إي. فاوض في تلك الاتفاقية عن الجانب الأمريكي غاليزي وعن الجانب السعودي الأمير منصور وساعده في ذلك يوسف ياسين. ومن بين الشروط اللافتة للنظر كان هناك شرط يقضي بأن تدفع الشركة الأمريكية رواتب الكادر الأمريكي. كما تقرر أيضاً أن يصل راتب الكابتن الأول إلى عشرة آلاف دولاراً سنوياً إضافة إلى تأمين السكن وعلاوة عن الرحلات إضافة إلى مصاريف أخرى لهم ولعائلاتهم. وتقرر أن يكون راتب الكابتن الثاني ٧٥٠٠ دولار، ويكون راتب المهندسين ستة آلاف دولار زائد ألف دولار إضافة إلى ميزات أخرى مشابهة للميزات السابقة.

كانت تلك وبالتأكيد ترتيبات موفقة سخية بررها حسن سير العمل الذي استمر منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا. حدث على مدى تلك الفترة تخفيض جوهري على الرواتب التي كانت تدفع إلى الموظفين الذين زاد عددهم بشكل ملحوظ.

تبع تلك الوليمة الرسمية تجمعات من أواسط أصدقاء الملك تناهت فيها المحادثات إلى أن وصلت إلى حديث دار حول موضوع الصواريخ البشرية وموضوع إجراء تجارب حمل على الضفادع في جنوب إفريقيا. تم أيضاً تناول موضوع الضفادع بصراحة مفرطة لدرجة أنه لا يمكن الكتابة عنه في أي كتاب محترم. وفي صباح اليوم التالي طلب مني أحد أطباء العصر أن أترجم إلى العربية بعض التعليمات الواردة على زجاجة تحتوى حبوب أرستون المستخدمة لتجديد الحيوية والشباب.

كانت ترتيبات سفر رجال القصر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج قائمة على قدم وساق. وانشغلت الطائرات في نقل النساء إلى الطائف حيث كان مقرراً أن يقضي

الملك بعض الوقت في أحد المخيمات هناك قبل التوجه إلى مكة. في تلك الأثناء كان الرئيس ترومان قد آثار بعض التوترات في الأوساط العربية بسبب اقتراحه الذي قال فيه: إنه يجب رفع وتيرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين وزيادتها بشكل ملحوظ. كان عرب فلسطين قد ردوا على ذلك الاقتراح بأن طالبوا بمقاطعة المنتجات الأمريكية وتوقيف نشاطاتها في المناطق العربية الأخرى. في الوقت نفسه دلت التقارير الواردة من عبدالله السليمان الذي كان موجوداً في نيويورك على نجاحه في إقناع الإدارة الأمريكية بالتجاوب مع مطالب الملك في إنجاز مشروع الخط الحديدي. وعليه كان من المفروض أن تقدم الحكومة الأمريكية كافة تكلفة المشروع والتي قدرت بـ ٣٢ مليون دولار أما المشاريع الأخرى فقد تقرر تخصيص مبالغ لها وفق ذلك الترتيب.

كان ابن سعود مسروراً لانتصار موقفه المتشدد؛ ولذلك أقيم حفل في السادس من أكتوبر (تشرين الأول) في المطار الذي كان قد أنشئ حديثاً في الحوية في منطقة الطائف. وخلال ثلاثة أيام كان موكب السيارات قد وصل إلى الدوادمي عندها خطر على بال الملك أن النقل بالطائرات يمكن أن يكون أسرع، وعليه صدرت الأوامر بأن تستعد الطائرات. ومع حلول الساعة العاشرة من صباح التاسع من تشرين أول كانت الجماهير قد استقرت في خيام المدينة. وهناك تجمع حشد كبير من الناس للترحيب بالملك الذي أمضى عدة أيام في استقبال العديد من الوجهاء الذين قدموا من مكة ومن مناطق أخرى للسلام عليه.

وفي تلك الفترة أيضاً وافق الملك على توقيع عقد مع الشركة البريطانية جيلاتلي هانكي لإنشاء خط أنابيب يبلغ طوله حوالي خمسين كيلومتراً، وذلك لجلب المياه العذبة من ينابيع وادي فاطمة إلى جدة. وقد قدرت تكاليف ذلك المشروع بـ ٢٥٠ ألف جنيه إسترليني لكن التكلفة الفعلية التي قدرت عند انتهاء المشروع تجاوزت

ذلك المبلغ بكثير. وسرعان ما تبين أن ضخ ثلاثة ملايين جالون من الماء -كما كان متفقاً عليه في البداية- لن يكفي لسد الاحتياجات المتنامية للمدينة. وعليه تم إنشاء خط جديد من قبل شركة محلية لتضاعف مقدار المياه الموصلة إلى جدة. ومما لا شك فيه أنه سيكون من الضروري أيضاً مضاعفة هذا الضخ في فترة قريبة جداً وذلك لسبب بسيط هو أن المدينة آخذة في الاتساع في جميع اتجاهات الصحراء باستثناء شواطئ البحر، علاوة على أن الناس هناك كانوا يستخدمون المياه بإسراف لا يتناسب مع الكميات التي تضخ لهم. ومثال ذلك أنهم كانوا يستخدمون المياه لري الحدائق في منازلهم. كما بلغ تعداد السكان في تلك المناطق ٣٠٠ ألف نسمة بالمقارنة مع ٣٠ ألف نسمة في العشر أو الخمس عشرة سنة الماضية.

ظهرت الحوية في تلك المناسبة بمنزلة مدينة حقيقية من الخيام التي انتشرت على أرض شاسعة مبسطة تكثر فيها الوديان المشجرة المنبثقة من الجبال المجاورة. وتقع الحوية على ارتفاع أربعة آلاف قدم عن سطح البحر، ولذلك السبب كان الملك يفضلها عن الطائف التي تقع على حوالي ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر وعلى بعد خمسة عشر ميلاً جنوباً. وكان المطار الجديد على مسافة بضعة أميال فقط إلى الشمال منها، علاوة على أن المعسكر كان ملائماً جداً للزوار الذين كانوا يعرضون على الملك أعمالهم. اختلفت هذه المناطق بعض الشيء عن الوضع في الرياض، إذ كانت أعمال الحكومة تتم بشكل روتيني مع استثناء طفيف في مجرياتها. بدا على الملك مزاج طيب فاستقبل الوجهاء وأهالي الحجاز بقصص ونوادر عن مغامراته في أيام شبابه. أما أمير الخرمة والمدعو سعد بن خالد بن لؤي، فكان على خلاف مع زعماء فخذ آخر من عشيرته -وهم مشايخ الخرمة-. وعليه قرر الملك أن يعالج ذلك الموضوع بنفسه، وأن يضع حداً لذلك النزاع ولمشاكل أخرى محتملة في تلك

الواحة. تم في جلسة علنية سماع أقوال الطرفين كما تبادل الطرفان وجهات نظرهما بقدر ملحوظ من التوتر الذي استبعد كل إمكانية للتوصل إلى تسوية لذلك الخلاف. لكن الملك كان يعرف متى يتدخل فأشار مازحاً إلى طبيعة الخلاف العائلي فيما بينهم، كما أشار إلى الرغبة الواضحة من قبل الطرفين في إنهائه ودفن عداوة الماضي. وفي النهاية تمكن من إقناع الطرفين -الممثل كل منهما بثلاثة من كبار الوجهاء- في قبول السلام وحملهم على تقبيل بعضهم بعضاً ليكون دليلاً على إحلال الوفاق بينهم.

أما الموضوع الآخر الذي طرح في ذلك اليوم أيضاً، فكان على قدر كبير من الدعابة لكن المرأة التي كانت طرفاً في النزاع لم تلاحظ تلك الدعابة. كانت تلك المرأة أرملة تبلغ من العمر ما لا يقل عن خمسين عاماً، لكنها كانت على قدر كبير من الثراء ورثته عن تجارة أعمال زوجها المتوفى. ولكي ينقذها زوجها من جشع أقاربه وأقاربها كان قد كلف صديقاً له بأن يكون وصياً على أملاكها. ولم يكن ذلك الرجل بأي حال من الأحوال لا من أقاربه ولا من أقاربها. اقترح هذا الرجل -وعلى ما يبدو بموافقة منها- أن تتحول علاقة الوصاية فيما بينهما إلى علاقة زوج وزوجة. لكن في تلك الأثناء ظهر على مسرح الأحداث منافس له ليطلب يدها، وكان يتميز بأنه ابن عم لها. ولهذا اعتقد بأن الحق في جانبه خاصة إذا فكر جدياً في الاستفادة من تلك القرابة ومن ذلك الوضع الاجتماعي. وفي ظل تلك الظروف فإن الشريعة الإسلامية وكذلك الأعراف القبلية تفضل زواج ابن العم من تلك المرأة على زواجها من الرجل الوصي على أملاكها[1]. ذلك باعتبار أن ابن

(١) الصحيح أن الشريعة الإسلامية ليس فيها ما يدل على هذا التفضيل الذي أشار إليه المؤلف، وإنما هي عادات قبلية تسمى (الحَجْر) وهي عادة لا تستند على قول صحيح من الشارع.

العم هو الوريث الشرعي لأملاكها بعد وفاتها. قرر الملك أن ينظر في القضية على ذلك النحو دون أن يعرب عن وجهة نظر بخصوص المشكلة القانونية الشائكة التي تتعلق بمطالبة الزوج المرجح في خلع الوصي الذي عينه زوج تلك المرأة الراحل. وعليه تم إحالة القضية إلى قاضي المحكمة ليصدر قراره بموجب الشريعة الإسلامية.

لم يُغْرِ الكرم السخي المسرف -الذي انبثق عن المطعم الملكي- الجائعين من البدو المقيمين في مرتفعات منطقة الطائف مع نسائهم وأطفالهم فحسب، لكنه شجع أيضاً قدوم أسراب ضخمة من مختلف الطيور الجارحة مثل الحدأة، والغذاف (غراب أسود)، والنسر المصري، وعدد من النسور الأخرى والطيور المعروفة باسم عيضة والتي تنقض على الخراف والصبية. كان من عادتها أيضاً أن تقتل فرائسها بأن تسقطها على الصخور من ارتفاعات عالية.

كانت منطقة تلك الجبال والتلال منطقة يستمتع من يراقب فيها أحوال الطبيعة. حدث في هذه المنطقة وبالتحديد في الثلاثينيات أن تمكنت من العثور على طائر الحجل وكذلك على طائر نقار الخشب وتبرعت بهما إلى المتحف البريطاني.

أمضى منذ عهد قريب عالم الطيور المشهور الكولونيل أر ميوتزهاغن بعض الأشهر في الجزيرة العربية، وأسفرت إقامته هناك عن تأليف موسوعة عن الطيور في الجزيرة العربية. تحتوي تلك الموسوعة على رسومات وشروح وصور رائعة.

بدأت الآن تهطل أمطار الشتاء لكنها لم تكن غزيرة في ذلك العام. وبعد مضي أسبوعين من الاستجمام في منطقة الحوية قرر ابن سعود أنه قد حان الوقت للالتفات للأمور الجدية المتعلقة بموسم الحج. وفي الثاني والعشرين من شهر أكتوبر

(تشرين أول) انطلق الموكب الملكي باتجاه مكة. كان الأمير فيصل قد غادر المملكة في هذه الفترة متوجهاً إلى لندن في طريقه إلى نيويورك لحضور جلسات الأمم المتحدة التي بدأت في اليوم التالي. وبعد يوم أو يومين عاد عبدالله السليمان وزير المالية إلى مكة بعد غياب طويل مثمر في الولايات المتحدة الأمريكية.

كان الحجاج قد بدؤوا في التدفق على المملكة، لكن الرقم النهائي للحجيج الذي بلغ ٦١,٣٨٦ لم يكن مشجعاً للدولة، لكن في الوقت نفسه، كان بإمكان وزارة الصحة أن تهنئ نفسها لأن مجمل الوفيات التي حدثت في مدة الأيام الأربعة من شعائر الحج لم تزد عن ٣٢ حالة وفاة.

كنت في تلك الفترة قد انتهيت من تركيب بعض الإنارة في منزلي وبدأت حديقتي تؤتي ثمار الجهد الذي بذلته من أجل تحسينها منذ أن عدت إلى مكة بعد الحرب. وجدت زوجاً من طائر الحدأة قد بدأ في بناء عشه في أحد أشجار منزلي، وكان ذلك في نفس موقع عشه في العام الماضي. وكان طائر الحميراء قد استوطن في حديقتي ومن المحتمل أن يكون هذا الطير هو الطير نفسه الذي سبق لي أن شاهدته في حديقتي في هذا الوقت من العام الماضي. استمر ذلك الطائر في القدوم إلى حديقتي وبشكل منتظم على مدى السنوات اللاحقة علماً بأن وجوده فيها خلال تلك الفترة لم يتجاوز الأسبوعين في كل مرة. كنا نشاهد في تلك الأيام أيضاً طائراً مائياً كبيراً -البجع- يتردد على الحقول المحيطة بنبعة الشريف عون التي كانت مقابل منزلي تماماً. أما حمام مكة، فكان مصدر إزعاج مستمر يدخل بيتي ويجثم فيه، أو كان ينتصب على أشجار حديقتي. كان دائماً يلتقط فتات ونثريات وجباتي التي كنت أتناولها في الهواء الطلق في ظل الأشجار أو في ظل جدران حديقتي.

استمرت الحياة في قصر الحكم كالمعتاد مع تنزه على الأرجل في معظم الأيام يأخذنا حتى وادي العضل، وهو أحد روافد وادي إبراهيم العظيم. كان الملك منشغلاً مع أفواج الوجهاء من الحجاج الذين قدموا من خارج المملكة ومناطق أخرى داخلية. وقد جاء مع هذه الوفود ثلاثة من أبناء الإمام يحيى حاكم اليمن، وجاء معهم حشد كبير من أتباعهم. وجاء أيضاً مدير جامعة الأزهر الشيخ مصطفى عبد الرازق أميراً لحملة الحج المصرية.

وبالمناسبة أقول بأن الوزير السعودي في القاهرة فوزان السابق والمعروف بأنه كان قد تجاوز التسعين من عمره كان قد استقال من منصبه في تلك الفترة بموجب تلميح لطيف من الملك أشعره فيه بأنه قدم للدولة بما فيه الكفاية ولقاء خدماته وهبه الملك كامل راتبه التقاعدي علاوة على أن الملك وهبه أيضاً المنزل الذي سكن فيه خلال عمله في ذلك المنصب. وعندما توفي عام ١٩٥٤م كان عمره قد تجاوز مئة عام. خلفه في منصبه صديق قديم يدعى عبدالله بن إبراهيم الفضل وهو لا يزال يعمل في القاهرة سفيراً للمملكة العربية السعودية[١].

في اليوم الأخير من شهر أكتوبر (تشرين أول) أقيمت الوليمة التقليدية لكبار ممثلي الحجاج القادمين من كافة أرجاء العالم في القصر الملكي وبلغ عددهم حوالي ٧٠ شخصاً. وفي اليوم التالي توجهنا جميعاً إلى منى استعداداً للوقوف على عرفات. أما في اليوم الثاني من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) فلم يكن هناك مفر من الروتين المتبع في تلك المناسبة، لكن مع استثناء واحد وهو أن عدد السيارات والعربات بالنسبة لعدد الجمال قلل من هيبة مواسم الحج، كما كانت عليه في

(١) توفي عام ١٩٥٧م. (المؤلف).

الماضي. حتى إن الملك نفسه كان قد تخلى عن عادته القديمة في قيادة موكب جمال حجاج نجد وناب عنه في ذلك ابنه متعب. كما ترأس الأمير متعب أيضاً الولائم التي كانت مفتوحة لكل من يستطيع الوصول إليها. وأصبح استخدام السيارات من قبل الحجاج هو القاعدة العامة. وكانت الشاحنات مشغولة طيلة النهار في نقل الركاب من مختلف مناطق المشاعر وإليها.

كان الطقس في ذلك الموسم مثالياً للغاية، فقد هطل المطر بشكل متفرق كما بدت أسراب الجراد في الظهور. وبعد موسم الحج مباشرة قام ابن سعود بزيارة جدة لبضعة أيام ليجتمع مع الجنرال سبيرز واللورد ريتشارد وندهام، وكذلك مع مديري شركة أرامكو الذين قدموا من الدمام.

كان في موسم حج هذا العام اثنان من الحجاج البريطانيين على عرفة، الأول يدعى بويل، وكان قد قدم على أمل أن يجد لنفسه عملاً في مكة، لكنه استاء لعدم توفر تلك الفرصة. أما الشخصية الثانية فكانت سيدة تدعى مريم لوسن وكان زوجها قد هجرها في لشبونة قبل خمس سنوات وكان لها ولدان كبيران مقيمان في لندن. قالت لي السيدة مريم بأنها شاهدت حلماً عندما كانت في منى وبالتحديد في الليلة التي سبقت توجه الحجاج إلى عرفات: شاهدت في ذلك الحلم لساناً من نار تلاه صورة لوجه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على حد قولها.

لم يكثر الحديث عن السياسة خلال أيام الحج هذه، لكن ولع الملك بالحيوانات الأليفة كان ظاهراً على تفكيره. كان من السهل إدراك عداوته للنظام الشيوعي الذي كان بالنسبة له يشكل رفضاً لكل مبادئه، علماً بأنه كان لديه تصور رائع عن الحياة في الدول الشيوعية. كان الملك مقتنعاً تماماً بأن سفاح ذوي القربى وممارسات

جنسية أخرى غير خلقية كانت تمارس بشكل علني في الحدائق وحتى في شوارع موسكو وفي مدن أخرى. لم أستطع أن أفهم سبب قلقه لحدوث حرب عالمية أخرى. كان هذا الموضوع يفرض على نفسه باستمرار. وفي أحد الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٤٦م قال: إنه إذا لم تتمكن الدول العظمى على مدى عام من الزمن إما من التوصل إلى اتفاق حقيقي أو اللجوء للحرب لحل النزاعات فيما بينها فستعم الكارثة ويعم الاضطراب على كافة دول العالم. كان واضحاً أنه كان يحاول استدراجي في الحديث، ولذلك آثرت مجاراته. عندها قلت: "إن التوصل إلى اتفاق بين فريقين لهما أفكار ووجهات نظر مختلفة بعضهما عن بعض في كل قضية من القضايا هو أمر مستحيل. وعلى هذه الحالة فلا داعي للاعتقاد بأن العالم لن يستمر في الاستمتاع بفترة معقولة من السلام والازدهار. في تلك الأمسية قال لي أحد مستشاريه الذي أصبح الآن السفير السعودي في روما: «إنني أفهم كل ما تقول وأنا أوافقك الرأي، لكنني لا أفهم ما يقوله الملك».

تمحورت المشكلة في الحكومة السعودية في تلك الفترة في وضع مستشاري الملك الذين لم يقوموا بالدور أو العمل الموكل إليهم باستثناء عبدالله السليمان الذي كان أشبه بالموظف المدعي المعتاد نوعاً ما على التعبير عن آرائه بحرية في مجتمع تميز بالصرامة. كانوا يفضلون انتظار التعليمات الخاصة بما يتوجب عليهم القيام به أو ما يتوجب عليهم التصريح به للجماهير. وإذا حدث وأن اختلفوا في وجهات النظر مع الملك فكانوا يحتفظون بتلك الحقيقة لأنفسهم, ربما كان يوسف ياسين أقربهم إلى الإعراب عن وجهات نظره الخاصة، فكانت له البراعة في عزو آرائه إلى الملك قبل أن يتسنى للملك أن يعرب عن رأيه الخاص. وعلى الرغم من

أنه كان مطلعاً على كافة سجلات ومعاملات الدولة إلا أنه كان يتمتع بذاكرة قوية. ونادراً ما كانت تلك الذاكرة تعيبه. إن الخصلة التي كانت تميز ابن سعود وعبدالله السليمان ويوسف ياسين وجمال الحسيني - الذي التحق بهم مؤخراً في خدمة الملك- أنهم -وبشكل مختلف عن بقية أفراد الحكومة- كانوا يعملون تفكيرهم باستمرار في القضايا المطروحة. لكن لم يكن تفكيرهم بالضرورة تفكيراً سليماً خالياً من المخاطر. أما بقية أعضاء الحكومة فكانوا يهابون من مبدأ التفكير الحر، لذا وجدوا أنه من الأسهل القول بكلمة: «نعم» بدلا من كلمة «لا» ذلك ليستمروا في نعيم رواتبهم المجزية ورغد العيش. على أية حال لا بد من الاعتراف -وبكامل النزاهة- بجهد عناصر الفئة القديمة التي شغلت مناصبها لمدة ثلاثين عاماً. قدموا إلى المملكة فقراء معدمين لم يجدوا خلال السنوات العجاف الأولى من خدمتهم الخير الكثير، ومع ذلك خدموا سيدهم بإخلاص وبشكل حسن. لكن يمكن للفرد أن يعيبهم لحقيقة واحدة هي أنه عندما تحسنت الظروف وضعوا مصلحتهم الشخصية قبل ولائهم للمملكة، وازدادت ثروتهم على مر الأيام[1].

أما في مجال السياسة الخارجية فكان واضحاً أن يوسف ياسين وأتباع مدرسته الفكرية لم يكونوا متحمسين للأسس الجوهرية المتعلقة بدبلوماسية ابن سعود. لكنهم كانوا دائماً على استعداد لترداد شجب ابن سعود للدول الشيوعية التي لم ترغب في أي حال من الأحوال في التقارب من السياسات التي كان ينهجها. استند ابن سعود في توجهه هذا إلى إصراره في الحفاظ على صداقته التقليدية مع الحكومة البريطانية. وفي الحفاظ على تحالفه الذي تم مؤخراً مع الحكومة

(١) هذا فيه تعميم غير دقيق.

الأمريكية. لم يكن لديه أي اعتراض على إقامة تعاون مع دول أخرى مثل ألمانيا، على سبيل المثال. ولأجل هذه الغاية لم يحد ابن سعود من النشاطات التي كان يقوم بها عبدالله السليمان إذ كان مهتماً -وهو على صواب في اهتمامه- في جلب طرف قوي ينافس في التطورات الاقتصادية المأمولة التي استحوذت على اهتمام الجميع؛ لأنها ساهمت في تزايد مصادر عائدات الدولة.

كان يوسف ياسين -بصفته المستشار السياسي الخاص لابن سعود والذي رفعت جهوده الخيرة من شأنه ومركزه- في مركز يسمح له بالتدخل من وراء الكواليس في القضايا التي تهم وزير المالية، وهو وزير كان يشرف على عدد كبير من الوزارات حتى التي ليس لها الصبغة المالية. كان بمقدور يوسف ياسين أن يلمح إلى الأخطاء والنواقص الواردة في أكبر دعامتين من دعائم سياسة سيده. وكان أيضاً متمسكاً بموضوعه إذا مكنه ذلك المنصب من إبداء ملاحظات ناقدة غالباً ما كانت تزعج كبار المستفيدين من ذلك الوضع في البلاد. على الرغم من أن منصبه كان منصباً سياسياً بالدرجة الأولى إلا أنه كان مهتماً للغاية بالأمور المالية الخاصة بالدولة، لكنه لم يكن بأي حال من الأحوال خبيراً متمكناً من تعقيدات هذه الأمور المتعلقة بالعقود. ولو أنه كرس طاقته حصراً لخدمة الدولة لصنع من نفسه موظفاً ذا قيمة بالغة، لكن تدخلاته الكثيرة في القضايا التي تقع خارج مجال عمله كانت غير موفقة ومستلهمة على نحو بين من دافع الغيرة. لم يكن مفيداً لبلاده، بل كان بمنزلة شوكة في خاصرة العديد من الشركات الأجنبية العاملة في المملكة[1]. والجدير بالذكر هنا أنه لولا مساهمات هذه الشركات في ازدهار المملكة

(١) يبدو أن رأي المؤلف هنا متأثر بمعاملاته التجارية مع الحكومة وعدم رضاه عن يوسف ياسين بسبب تلك العلاقة التجارية وما ينتج عنها من رفض لعروض أو تأخير لمستحقات.

لكان من الصعب عليه تحقيق ثروته الهائلة التي غالباً ما يتباهى بها -وهو يعرف ذلك حق المعرفة-. في الواقع حدث في عام ١٩٥٣م أن قال لي أنه لو كان يعرف أنني كنت أعمل لحصول شركة كاليفورنيا ستاندارد على امتياز للتنقيب عن النفط لفعل كل ما في وسعه لعرقلة منح الامتياز. جاوبته على ذلك بقولي: «لو قدر لك وفعلت ذلك فأين يمكن أن تكون أنت والمملكة الآن؟» وفعلاً لو أنني كنت قد عملت لصالح تلك الشركة لكان عملي ناجماً عن قناعتي بإفادة المملكة بالدرجة الأولى. كما أن الملك كان -وفي كافة الأوقات- مطلعاً على وجهات نظري.

وفي مناسبة أخرى حدثت قبل عام اتهمني يوسف ياسين بممارسة "تأثيري على الملك" على حد تعبيره. وادعى بأنني فعلت ذلك لأضمن إلغاء العقد الخاص بطريق المدينة دون تكليف الشركة البريطانية أية غرامات مالية. خسرت الشركة البريطانية مبلغاً ضخماً من المال في مشروع كان أشبه بالمستحيل بسبب المعوقات والعراقيل التي كان الرسميون الحكوميون والمهندسون المعنيون يختلقونها.

عرفت يوسف ياسين لمدة ثلاثين عاماً، وكنا دائماً على علاقة حميمة، وأحياناً كانت تتحول إلى ودية. لكنه كان بطبعه إنساناً حسوداً وغالباً ما كان يبدي استياءه من ثقة ابن سعود بي. علماً بأنه كان يطلب مساعدتي في قضايا سياسية دقيقة مثل: مشكلة البريمي على سبيل المثال. وكان غالباً ما يلقى مني نعم النصيحة. والحقيقة التي يجب أن أعرب عنها هنا هي أنه كان لي اهتمام ما بالحدود الجنوبية للمملكة وخاصة في الوضع الذي كانت عليه تلك الحدود مع اليمن، إذ كان اليمن يطالب فيها من أجل فتح حوار مع الحكومة البريطانية.

كان لوجهات النظر المتضاربة داخل الحكومة في مجال السياسة الخارجية ما يقابلها من تضارب في وجهات النظر في المجال المحدود نسبياً والمتعلق بالشؤون

العربيـة. فلم يكن ابن سعـود متحـمساً للجـامعة العـربية[1]، بل كان في بعض الأحيان نـاقداً لها. لكنه كان يدعم وبنزاهة مـوضوع التضامن العـربي والإسلامي ضمن حدود واقعية ممكنة، كما أنه لم يكن في يوم من الأيام ليؤيد فكرة استخدام هذا التضامن كـمهماز يستفز به الغـرب أو حتى الهجوم عليهم. كـان هناك معيار لتوجهاته، وهو أنه في القضـايا التي لا تمس وضع المملكة بشكل مباشر كان ينزل عند رغبة الدول الأخرى في جامعة الدول العربية. أما عندما يتعلق الأمر بالمصالح الحيـوية للمملكة فكان يحـتفظ بحقه فـي التصرف على النحـو الأمثل الذي يراه مناسباً. كان يعـتقد أيضاً بأن الجلبة والتذمر الغـاضب الصادر عن الحكومة المصرية لانسحاب القوات البريطانية من قاعدتها في السويس كان أمراً يشك حتى في مدى منفعـته في خدمـة المصالح المصريـة نفسهـا. وحتى فيـما يتعلق بموضـوع الجدل والخلاف القائم بين سلطات اليمن وسلطات عدن حول مـحمية حضرموت، فكان يفضل البقاء خارج جلبة هذا الجدال. لكن مما لا شك فيه أنه كان من الممكن لابن سعود أن يتدخل في كل هذه المشاكل خاصة إذا رأت الحكومة البريطانية ضرورة ما تحمله على التعاون بصفته وسيط سـلام أو حكماً في تلك المشاكل. أعتقد أنه كان من دواعي استياء ابن سعود أن الحكومة البريطانية لم تجد من الضروري إعطاء ابن سعود مـثل ذلك التكريم. كان ابن سعود منزعـجاً جداً من التصرفـات البريطانية العدائية حيال قضية البريمي وحيـال قضية حدود بلاده الجنوبية الشرقية، لكن يبقى من الصعب تحديد مدى علاقة تلك الأمور بالاحترام والهيبة الشخصية. ربما كانت

(١) كان الملك عبدالعزيز من المؤسـسين للجامعة العربية، إلا أنه كان أحياناً غيـر راض عن سياساتها ومواقف بعض الدول العربية غير المتفقة مع الرأي الواحد.

الأمور مردها إلى رغبة طبيعية في السيطرة على مناطق النفط. لكن من المؤكد أن ابن سعود مات ولديه إحساس بأن أصدقاءه البريطانيين لم يبدوا أية مبادرة للنظر في الامتعاض الشخصي الذي كان يعتمل في صدره بسبب تصرفاتهم.

في تلك المرحلة من تطور الأحداث كان أصدقائي السعوديون قد اتهموني بإساءة تفسير ابن سعود خاصة فيما يتعلق بالعديد من المشاكل التي استحوذت على تفكيره بين الحين والآخر. لكنني أعتقد أنني ربما قد فسرت وجهات نظره على نحو أفضل مما فسره بعض مستشاريه الذين كانوا يودون لو أن ابن سعود يقتنع بأفكار مشابهة لأفكارهم. وحقاً حدث في عام ١٩٣٧م أن ابن سعود -كما جاء في مقالة نشرتها صحيفة التايمز- كان قد برأ نفسه وحكومته من الدعم الذي أبديته لاقتراح اللورد بيل، والرامي إلى تقسيم فلسطين. لكن ابن سعود كان قد أدرك بأن قضية الفلسطينيين العرب كانت تسير من السيئ إلى الأسوأ مع مرور كل يوم. والآن وبعد مرور تسع سنوات ذكرته زيارة الوفد الأمريكي البريطاني إلى الرياض بأن المشكلة أصبحت على شفير تطور حاسم. كان من الممكن لابن سعود أن يرحب باستمرار الانتداب البريطاني غير محدود وإطلاق يد السلطات البريطانية في فعل ما تراه مناسباً وجيداً لخدمة مصالح الناس كافة، لكن لم يعد هناك مجال لمثل ذلك الاحتمال. أصبح موضوع التقسيم المحتوم أمراً يلوح مجدداً في الأفق فكيف يتصرف ابن سعود الآن؟ أوردت في مذكراتي المؤرخة في الواحد والعشرين من شهر أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٤٦م بأن المسألة قد نوقشت: بمعنى أن الملك أكد في جلسة علنية بأن الدول العربية لن توافق على التقسيم، كما لا تقر أي حق لليهود في الوجود على أرض فلسطين، لكنها يمكن أن تقبل لفكرة التقسيم إذا تم فرضها من قبل الحكومة البريطانية. كان ذلك بمثابة تعبير عن رأيه وربما كان ذلك

ضرباً من التصرف الذي يتسم بالحكمة في وجهة المشاكل المستعصية. لكن الأحداث التي ظهرت على مدى العامين التاليين أثبتت أن ابن سعود كان في حقيقة الأمر مخطئاً وحتى لو أن تعقله في المسألة كان تعقلاً سليماً. وبعد أن تخلت بريطانيا عن انتدابها على فلسطين قدمت الدول العربية مذكرة إلى الأمم المتحدة بخصوص التقسيم، وذلك للفصل في تلك المسألة عن طريق الحرب. وبسبب عجزها علاوة على الممارسات، خسرت الدول العربية أراض أكثر بكثير مما كان بالإمكان أن تكسبه فيما لو قبلت التقسيم. عدّ ابن سعود أن ذلك الجزء من فلسطين الذي خصص للعرب أصبح في أحضان الملك عبدالله ملك الأردن، وأنه لم يستسغ تلك النتيجة على الإطلاق. لم ترق له فكرة إقامة ما يسمى حكومة عربية على كافة مناطق فلسطين على أن يكون قطاع غزة الذي كانت القوات المصرية تسيطر عليه مقراً لها. لكن أصبحت مسألة الموت الطبيعي لتلك الفكرة مسألة وقت. وفعلاً فشلت فكرة تلك الحكومة، ومع مرور الوقت استطاع وزير خارجية تلك الحكومة المقترحة أن يجد لنفسه وظيفة مجزية مادياً في المملكة العربية السعودية وأصبح يتمتع بمنصب رفيع المستوى في ظل الحكومة الجديدة بعد وفاة الملك.

ما زلت أعتقد أنه كان من الممكن لابن سعود أن يقبل اقتراحي الخاص بتبادل كل أراضي فلسطين مقابل الحصول على الاستقلال الكامل لكافة الأراضي العربية وإعادة توطين الفلسطينيين المتشردين. كان من الممكن له أن يقبل ذلك الاقتراح لو حدث وأن عرض عليه الأمر بشكل رسمي أو خول بذلك. لكن يبقى هذا الطرح مجرد تكهنات باعتبار أن ذلك العرض لم يتجسد على أرض الواقع.

كان ابن سعود مثل معظم العرب حساساً للغاية تجاه أي نقد أو حيال الإعراب عن وجهة نظر علنية. كان عليه أن يسير بحذر في متاهة الوضع الفلسطيني المعقد.

لكن الأشخاص من حوله وعلى وجه التحديد الأشخاص الذين كان يثق بهم، كانوا مدركين للمساقات التي كان يفكر بها بخصوص تلك المشكلة. لم يستسغ كبار ضباط ابن سعود هذه النقطة الأساسية في سياسته. لكن لم يكن بإمكانهم الاستمرار في مناصبهم لو تجرؤوا وتساءلوا عن الحكمة في تصرفات ابن سعود.

سمح ابن سعود لقوة سعودية بالمشاركة في حرب فلسطين تحت القيادة المصرية، كما سمح بجمع تبرعات سخية لتنفيذ تلك الحملة، لكنه كان يمقت الطريقة التي كانت تنفذ بها العمليات العسكرية، كما كان مستاء من السياسيين الذين كانوا يقفون خلفها. كانت في بعض الأحيان الآراء العرضية غير الملزمة قاسية بعض الشيء على مفتي القدس الذي كان ينظر إليه على أنه ملهم حركة تحرير فلسطين. اعتقد المفتي بأن قضية فلسطين تستحق من القادة العرب أكثر من مجرد ولاء كلامي كاذب. والجدير بالذكر هنا أنه عُرف عن أولئك القادة أنهم كانوا يجنون الثروات الطائلة من خلال تزويد الرجال المشاركين في القتال بالسلاح. وهذا ما اعترف به مؤخراً الزعيم المصري الحالي.

لو أن ابن سعود -وعلى النحو الذي شاطر به المناضلين العرب عداءهم لليهود- لم يكن مهتماً فعلاً بمشكلة فلسطين -على النحو الذي كانت خاضعة فيه تماماً لقرار السلطات البريطانية- لكان -بالفعل- متأثراً بكل تحرك يقوم به أعداؤه من القادة الهاشميين في الأردن والعراق. كما حدث في اليوم نفسه الذي أعرب فيه ابن سعود عن رأيه بخصوص تقسيم فلسطين أن جاء موظف بالقصر يحمل صحيفة سورية عرضها على ابن سعود إذ كان فيها مقال مفاده أن موضوع توقيع اتفاقية وحدة بين المملكتين الهاشميتين -الأردن والعراق- بات أمراً وشيكاً. ولم تكن تلك الظاهرة إلا نتيجة المكائد البريطانية التي تستهدف الضرر بابن سعود.

ندد ابن سعود بشدة هذا التوجه الاستعماري لبلد كان قد ارتضى أن يترك بيد قادته ليس أمر فلسطين فحسب، بل أيضاً أمر الأردن والعراق. تحداني ابن سعود علناً إذا كان بإمكاني دحض وجهة نظره، فأجبته قائلاً: إن الحاكمين الهاشميين ينظر إليهما حالياً على أنهما مستقلان مخولان في نهج أي سياسة يريان أنها تخدم مصالحهما.

وبالطبع كان الشيء غير المقبول حيال هذه التطورات أن يكون ملك الأردن أو ملك العراق يحكم هذه المملكة المؤلفة من العراق والأردن، كما أنه من غير المقبول أن يكون ملك العراق الوريث الذي لا ينازع في وراثة العرش. وعلى أية حال لم يكن هناك معنى جوهري حقيقي للتوتر القائم بين البلدين، علماً بأن إمكانية الوحدة بينهما أصبحت واضحة.

لم تتبلور تلك الوحدة بعد، وكان لا بد من مرور بعض الوقت قبل أن يتمكن الملك عبد الله من توسيع نطاق مملكته وتعزيز هيبته. ويعود الفضل هنا إلى نجاح الجيوش العربية بقيادة الجنرال غلوب[1] في إنقاذ جزء من فلسطين من الكارثة التي حلت بها في عام ١٩٤٨م. لكن ظلت فلسطين المقسمة وكذلك القدس المقسمة وحتى يومنا هذا بمنزلة نظير لألمانيا المقسمة ولبرلين المقسمة أيضاً.

حدث خلال صيف ذلك العام أن أسفرت زيارة عبدالله إلى الرياض عن مصالحة ملحوظة. وبعد مرور بعض السنوات رد ولي العهد الأمير سعود تلك الزيارة بأن زار عَمَّان. لكن الخلاف بين الطرفين لم ينته، بل كان محجوباً عن الأنظار بشكل حذر. وعندما وقعت في القدس حادثة اغتيال الملك عبدالله في

(١) ما هو النجاح الذي يتحدث عنه المؤلف؟! لقد هزمت الجيوش العربية ولم تحقق شيئاً من أهدافها، ولهذه الهزيمة أسباب منها القائد الإنجليزي غلوب؛ إذ كيف تنتصر جيوش عربية مسلمة يسيرها قائد بريطاني متعصب لبني جلدته بالإضافة إلى أن حكومته وضعته في هذا المنصب لتحقيق أهداف معينة وقد فعل ذلك.

العشرين من شهر يولية (تموز) عام ١٩٥١م لم يكن بين الطرفين ما يستدعي إظهاره ولا حتى على مستوى المشاركة الرسمية الخاصة بمأتم خصم قديم. كان ابن سعود في اليوم الذي سبق الحادثة قد ترك الرياض متوجهاً في طريقه إلى الحوية للراحة وللاستعداد لموسم الحج. ولكن عندما انضممت إلى حفلة ولي العهد في حدائق الناصرية عصر ذلك اليوم شعرت بأن جواً من الانفعال المكبوت كان مخيماً على الحاضرين. ولعلمه بأنني أستمع دائماً إلى أخبار الإذاعة البريطانية قبل القدوم إلى قصر الحكم سألني سعود متلهفاً عماً كان في جعبتي من أخبار. في الواقع لم يكن لدي أية أخبار هامة، لكن سعوداً نفسه أخبرني بأن إذاعة محلية نقلت خبر وفاة الملك عبدالله دون ذكر التفاصيل. كان علينا أن ننتظر حوالي نصف ساعة لنستمع إلى نشرة أخبار الإذاعة البريطانية. وعندما حان وقتها بدأت بترجمتها بشكل فوري على مسامع الحاضرين المنفعلين الذين كانوا يتساءلون ويتشاورون عما إذا كانت الوفاة طبيعية أو أنها كانت بفعل جريمة أو اغتيال. ظل ذلك الحدث لبضعة أيام محور حديث الناس في القصر، وفي صباح اليوم التالي وبعد أن نشر خبر تأبين الملك الراحل من قبل القادة البريطانيين وأعلنت الصحف ذلك، علق سعود ساخراً بقوله: إن السلطات المسؤولة قررت أخيراً أن تكشف عن ميولها المؤيدة لليهود وأن السياسة البريطانية انكشفت على حقيقتها. وبعد أسبوع التحقت بمعسكر الملك في الحوية لقضاء أسبوعين، وهناك لم يحدث وأن تحدث الملك عن ذلك الموضوع بحضوري أبداً. كان سعود قد اقترح على والده إنشاء جبهة عربية مشتركة لإحباط طموحات العراق الهادفة للاستفادة من الوضع في الأردن. شعر سعود بسرور بالغ لموافقة والده على تلك الفكرة. لكن لم يتم اتخاذ أية خطوة عملية في ذلك الاتجاه، كما أنه لم يكن بالإمكان اتخاذ مثل تلك الخطوات في ظل الظروف الراهنة.

شهدت العراق تظاهرات جماهيرية، كما شهدت جامعة الأزهر تظاهرات احتجاجاً على الأحكام الصادرة عن المحكمة العسكرية التي ترأسها الجنرال غلوب باشا بحق العديد من الأشخاص المتهمين بالضلوع في المؤامرة. انعكس هذا الاستياء في أوساط رجال القصر وطلب إسحاق موسى الحسيني -وهو واحد من أسرة مفتي القدس ويعمل مدرساً في الجامعة الأمريكية ببيروت- من الحكومة السعودية التدخل لإنقاذ أحد المحكومين الذي كان ابن عم له يدعى موسى الحسيني وهو خريج كلية الزراعة في جامعة كامبردج. لكن في الرابع من شهر سبتمبر (أيلول) تم إعدام أربعة أشخاص. وفي اليوم التالي خمدت حدة توتر آخر كان محتملاً بسبب الإعلان عن تنصيب طلال الابن الأكبر للملك الراحل عبدالله ملكاً مكان والده. وجاء ذلك نتيجة لمصادقة مجلس النواب في الأردن على القرار الذي طرحته الحكومة. تجلت نتيجة تلك المأساة في رحيل الملك عبدالله عن الساحة السياسية العربية التي -من دون شك- قضت على أحد مصادر الشقاق والخلاف في منطقة الشرق الأوسط. جاءت ردة فعل ابن سعود على ذلك الموضوع بأن مد يد الصداقة إلى ملكين شابين جاثمين على حدوده الشمالية. وبعد وفاته وقعت أحداث أخرى كان يمكن لها أن تذكي جمر العداء والتنافس القديم.

وعند نهاية عام ١٩٤٦م فرضت الاضطرابات العامة في العالم العربي على حكومة المملكة العربية السعودية ضرورة البحث عن السلاح. سبق أن أشرت إلى المبلغ الذي خصص من الميزانية للأمور الدفاعية والذي بلغ ٨٠٠ ألف جنيه إسترليني. كنا قد أشرفنا في تلك المرحلة على نهاية موسم الحج عام ١٣٦٥هـ. ومرة ثانية تجلت المشكلة في الوضع المالي برمته، كما تمت مباحثات مع الحكومة البريطانية بخصوص إرسال بعثة عسكرية إلى الطائف لتدريب الجيش السعودي

الذي لم يكن من الناحية العملية موجوداً باستثناء بعض الخليط من أناس عاديين وعدد كبير من الضباط المتقاعدين العاجزين عن العمل إما لمرض أو شيخوخة، إضافة إلى بعض القادمين من بلدان أخرى. كان من الصعب على هؤلاء أن يقنعوا أنفسهم بأنهم ليسوا قادة حروب.

اختير الجنرال روبرت بيرد لتدريب هذا الخليط من الناس، ووضعت تحت تصرفه إمكانيات محدودة بسبب شح الميزانية البريطانية. كان روبرت بيرد رجل من أصل أيرلندي اكتسب خبرة واسعة من تحسين الوضع العسكري في السودان وفي مناطق أخرى. كان يتقن اللهجة العربية المحلية التي اعتقد كل واحد منا بأهميتها لمعرفة حقيقة الشخصية العربية. ومن بين الأشخاص الآخرين الذين يمكن أن أقول بأنه كانت لديهم الخبرة نفسها باللغة العربية كان غلوب ودكسون إضافة إلى بادي، ورول وثيسيجر. لكن كان من الممكن لـ بيرد أن يصاب بالحرج إذا قيل له بأنه ينتمي إلى تلك المجموعة، لكن انعكاس لهجته الأيرلندية السريعة على اللغة العربية -المتميزة بمخارج حروفها من البلعوم- كانت ظاهرة لطيفة لا بد أن يسمعها الإنسان ليصدق لطافتها.

وصل بيرد إلى المملكة في اليوم التاسع من شهر ديسمبر (كانون أول) عام ١٩٤٦م ليقوم بفحص المنشآت العسكرية الموجودة في الطائف وأخرى كان من المفروض أن يبدأ العمل في إنشائها. وصل ليعد الترتيبات الخاصة بمهمته التي اشتملت على تسعة ضباط آخرين، إضافة إلى ستة وعشرين ضابطاً غير متفرغين، وذلك لإعادة ترتيب وتدريب الجيش السعودي. في تلك الأثناء تم تعيين الدكتور يوسف ياسين مترجماً ما بين البعثة البريطانية ووزير الدفاع الأمير منصور. وسبق أن شغل يوسف ياسين منصب السكرتير الإعلامي في البعثة

السعودية في لندن. اتخذ وزير الدفاع من إبراهيم المعمر -الذي كان يعمل في عام ١٩١٨م مرشداً وصديقاً لي- وخالد السديري صماما أمان للحد من تحمس واندفاع البعثة البريطانية.

كانت الفكرة -بشكل عام- هي إنشاء جيش نظامي مؤلف من اثني عشر ألف رجل، وكانت هناك مشكلة تأمين الاعتمادات المالية اللازمة لتحقيق تلك الغاية، علماً بأنه تم الاتفاق على أن تؤمن البعثة البريطانية كافة احتياجاتها.

حضرت اجتماع اللجنة الاستشارية المكلفة بمهمة الإشراف على الاعتماد المالي المقترح الذي بلغ مليوناً وثلاث مئة ألف جنيه إسترليني. وفي ذلك الاجتماع صرح ممثلو وزارة المالية بأن المبلغ الذي تم تأمينه لم يتجاوز ٨٥٠ ألف جنيه. نقل ذلك الخبر إلى الملك فغضب بسبب بخل عبدالله السليمان، فأجبره على اعتماد المبلغ المقترح أصلاً. وبالفعل لم يشكل هذا الأمر صعوبة حقيقية. وبعد أربع سنوات توفي الأمير منصور، وكان في التاسعة والعشرين من عمره -وهو الابن المفضل لدى الملك- وترك ثروة بلغت ثلاثة ملايين جنيه[1]. بذلت البعثة العسكرية البريطانية خلال تلك الفترة قصارى جهدها، لكن الأمير منصور قبل وفاته كان يعيق كل إجراء تقترحه البعثة البريطانية، وكان يعامل أعضاء اللجنة باستخفاف، كما منع أي اختلاط بينهم وبين الوجهاء والرسميين المحليين، لكن في نهاية المطاف سحبت الحكومة البريطانية بعثتها. وفي نهاية عام ١٩٥١م أوكلت مهمة تدريب الجيش السعودي إلى بعثة أمريكية ،كما تم إقحام عناصر مصرية جعلت الأمور أكثر تعقيداً. وأسهم في تعقيدها أيضاً الأمير منصور ومستشاروه. كان بيرد في العام نفسه قد انتقم ممن شوهوا سمعته بأن كُلف باحتلال واحة البريمي مع عدد من الرعاع والغوغائيين من

(١) هذه معلومات تعوزها الدقة وتحتاج إلى دليل على صدقها، كما أنه لا حاجة إليها في إطار الموضوع.

منطقتي مسقط وأبوظبي. والجدير بالذكر أن بيرد كان قد درب هؤلاء الرعاع ليكونوا نداً لأي استعدادات عسكرية يمكن أن تقوم بها الحكومة السعودية. الحقيقة أنه كانت تحت تصرفه معدات حديثة لكن المبلغ المخصص من الميزانية السعودية للأغراض العسكرية والبالغ خمسين مليون جنيه لم يكن يكفي لتأمين معدات مماثلة. وحسب معلوماتي فقد عُرض على وزارة الدفاع عربات من طراز ميتيورز وثابريرز ونزكاونت، كما تم تزويدها بسيارات حديثة مصفحة. لكن هذا العرض كان قد تكسر.

تمخضت الفترة التي جاءت عقب الحرب مباشرة -والتي شهدت من الزيارات التي كان يقوم بها الأمراء السعوديون ومعهم أعداد غفيرة من المرافقين إلى الولايات المتحدة الأمريكية- عن جلب عادات تميزت بالبذخ والإسراف، وتعارضت بشكل غريب مع التقشف الذي كان متبعاً في السابق والذي لا يزال الملك متمسكاً به. نهج الملك ذلك الأسلوب دون أن يحرم نفسه من المتع التي كان يفرضها عليه عمله. لم يسفر تنديده ببعض الممارسات السخيفة -مثل تركيب النساء وحتى سيدات القصر لأسنان الذهب- عن نتيجة إيجابية، إذ أصبحت تلك العادة تنتشر بشكل واسع وسريع. هذا وكان الملك أيضاً يؤكد على أن يقص الرجال شواربهم بشكل طبيعي وأن لا يتركوها تتدلى فوق الشفة ولا يفتلوها بشكل ملحوظ معقد ومناف للذوق السليم. كما كان أمر حلق الذقن شيئاً محرماً. ذهب عبدالله أخو الملك لحد أن شجب عمل استطلاع أسرار الآثار غير الإسلامية ووصفها بأنها حرام وقال: إن التماثيل والأوثان لا تستحق سوى الهدم والخراب. بددت الجولة التي قام بها عبدالله السليمان إلى أمريكا -والتي عاد منها بقصص شيقة عما شاهده هناك علاوة على الجولة التي قام بها ولي العهد ليطلع بنفسه على عجائب العالم الحديث- العديد من أوهام السعوديين، ولم يعد هناك مجال للرجوع إلى الطريق القديم. توسع أفق مخيلتهم، كما شهدوا بأنفسهم إنجازات

الإنسان التي كانوا ينظرون إليها على أنها نماذج يمكن أن تحتذى في المملكة؛ ولهذا يجب أن يحكم عليهم بموجب ردود أفعالهم للدروس التي تعلموها.

قضيت في مصر عطلة لمدة شهرين، احتفلت خلالها بأعياد الميلاد ورأس السنة لعام ١٩٤٧م. وفي شهر يناير (كانون الثاني) أخذت ابني كيم في جولة ليتعرف على المملكة وذلك قبل التحاقه بعمله الجديد في إستانبول. كان كيم يحضر برفقتي جلسات الملك في الرياض، كما كان يقوم بجولات في المدينة وفي المناطق المحيطة بها مرتدياً الزي العربي الذي كان في حقيقة الأمر زياً إلزامياً في تلك الأيام. عندما كان كيم طالباً في المدرسة في لندن -أي قبل ٢٨ عاماً- قدر له أن يقابل الأمير فيصل خلال زيارته الأولى إلى لندن. وسبق لكيم أيضاً أن تعرف على مناطق الأردن وسوريا أثناء زيارته لي عندما كنت أعمل هناك. لكن كيم تأخر كثيراً عن مشاهدة المملكة في أحسن أحوالها. إذ أصبح الملك متعباً في كافة الجلسات التي حضرناها، كما أن حوار الجلسات كان فاتراً لعدم توفر أي موضوع جدير بالنقاش. توجهنا بالطائرة إلى الطائف وهناك استقبلنا بيرد وكان باستطاعتنا التعرف على بعض ما كان قد استهل به من أعمال تنظيمية. تعرفنا أيضاً على الجبال التي نزلنا فيها بسيارة عسكرية -وضعها بيرد تحت تصرفنا- باتجاه جدة. ومن سوء الحظ كانت رحلة الذهاب والعودة بالطائرة رحلة صعبة بسبب الأحوال الضبابية التي خيمت على جو الصحراء.

عدت إلى الرياض في شهر مارس (آذار) وبالتحديد في يوم موعد سفر الملك إلى بريدة عاصمة منطقة القصيم إذ كان قد قرر أن يقضي فيها مدة شهر من فصل الربيع. وسرعان ما سافرت جواً للانضمام إلى مدينته الكبيرة المؤلفة من عدد كبير من الخيام التي انتشرت على كثبان الرمال الواقعة إلى الغرب من بريدة.

كانت زيارتي التي استغرقت يومين إلى حائل فترة فاصلة مريحة تمكنت خلالها من تحقيق رغبة قديمة لي بالسفر إلى واحة العيون. تم ذلك بصحبة رشدي ملحس. وقد ادعى بالجريف بأنه زارها إلا أن وصفه للآثار والنصب التي قال عنها إنها كانت مبنية من أحجار ضخمة على شكل أعمدة ومسلات كان وصفاً ملفقاً ومختلقاً من وحي مخيلته. وهذا ما كنت قد توقعته. ربما جاء ذلك الوصف بناء على ما قاله له شخص عربي سبق أن زار دمشق وهو يحاول وصف الأشكال الرائعة للصخور الرملية المنتشرة في المناطق المجاورة لتلك الواحة. اقتنعت بأن نظريتي كانت صائبة، وأن بالجريف لم يسافر أبعد من منطقة الجوف. وبعد فترة من الزمن تمكنت من نشر مقالة في مجلة «جيوغرافيكال»[1] عن تجربتي تلك، وحسب ما أعلم لم يجرؤ أحد على مناقشة ما توصلت إليه من نتائج في تلك المقالة. والشيء الوحيد الذي أسفت له هو أن الدكتور هوجارث -الذي سبق له أن دافع بشدة عن موقف بالجريف ونقض هجومي عليه[2] في عام ١٩٢٠م- مات قبل أن يشهد فداحة خطئه.

وخلال جلسة الحكومة التي عقدت في بريدة حدثت تطورات معينة دلت على أن المملكة كانت على شفير مرحلة جديدة، لكن سأحتفظ بالحديث عن هذه التطورات لمناسبة أخرى قادمة مختتماً هذا الفصل بسرد النشاطات التي قمت بها خلال هذا العام المليء بالأحداث.

كانت شخصيات عديدة مهمة تأتي إلى الملك للتشاور معه في العديد من أمور الدولة، ومثال ذلك اقتراحات خاصة بالميزانية، وأمور التطورات النفطية، وموضوع

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، أبريل - يونية، ١٩٤٧م. (المؤلف).
(٢) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، مارس وديسمبر ١٩٢٠م. (المؤلف).

سكة الحديد، وما شابه ذلك. لكن كان من بين الزوار شخصية غير اعتيادية تدعى جان هبكنز. كان هبكنز ذا شخصية قوية وكان صريحاً وغير معقد في تفكيره. وكان مهتماً بقضايا معينة آملاً بأن يستوضح من خلال زيارته عن بعض النقاط المتعلقة بها. كنت حاضراً خلال المقابلة التي تمت في القصر بشكل مفتوح، وكنت في وضع مكنني من ملاحظة الانزعاج المتزايد الذي بدا على ابن سعود. لم يكن من عادته أن يتعامل بفظاظة مع أي من ضيوفه، لكنه استاء من عدم لباقة هبكنز. وعندما طفح به الكيل أمر بإنهاء المقابلة بشكل مؤدب إذ قال: بأن عليه الذهاب لتناول طعام الغداء. وقال أيضاً: بأن هناك طائرة تحت تصرف هبكنز لتنقله إلى الظهران عصر ذلك اليوم قبل توجهه النهائي إلى نيويورك. وأضاف بأن أحد موظفي القصر سيسلم هبكنز الإجابة عن الأسئلة التي قدمها هبكنز خطياً.

كان هبكنز قد طرح على الملك أسئلة محددة تتعلق بموضوع فلسطين وموضوع تعدد الزوجات، وموضوع امتلاك الرق وما شابه ذلك. عدها الملك مواضيع خارجة عن نطاق صلاحية هبكنز. لكن هبكنز قال في ذروة النقاش بأنه يجب أن يكون في المملكة حرية ممارسة الأديان كما هي الحال في باقي الدول المتحضرة الأخرى. وأنه يجب على الأقل السماح للأمريكيين العاملين في حقول النفط ببناء كنيسة يمارسون فيها عباداتهم. لم يدرك هبكنز أنه بطرحه ذلك كاد أن يلقي قنبلة في جلسة القصر. كان إسلام ابن سعود إسلاماً حقاً لا يمكنه من تقبل مثل تلك الفكرة، لكن الدين الإسلامي يفرض عليه أن يتحمل وأن يتعامل بنزاهة مع مثل

هؤلاء الأشخاص الذين يؤمنون بالديانة السماوية التي جاء بها موسى وعيسى لكنهم ضلوا بتعاليمهم عن طريق الصواب. لكن ابن سعود لم يكن في أي حال من الأحوال ليمدهم بالسبل التي تجعلهم يتمادون في ضلالهم.

كنت قد عزمت على الذهاب جواً إلى الرياض، إلا أنه قد تقرر الآن أن تتوجه الطائرة إلى الظهران لمرافقة ضيف الملك غير المرغوب فيه. سنحت لي الفرصة آنذاك أن أرافق هبكنز في رحلته وعملت كل ما في وسعي للتلطيف من حدة مشاعره، وشرحت له الجانب العنيف الذي تجلى في مهمته وفي تصرفاته التي نهجها في بلد هو في الواقع أكثر تديناً من أي بلد في العالم.

وعندما وصلنا إلى الظهران وفرت عليه عناء المعاملة المهينة خاصة عندما طلب منه موظف الجمارك الإفصاح عما إذا كان بحوزته أشياء يود الكشف عنها وطلب منه أن يفتح حقائب سفره للتفتيش. عندها قمت بالاحتجاج على هذا التصرف قائلاً: إن هبكنز كان ضيفاً على الملك، وأنه لم يغادر السعودية منذ اللحظة التي قدم فيها إلى المملكة. وسألت رجال الجمارك عما إذا كانوا يظنون بأن هبكنز كان يحاول تهريب أسلحة أو مخدرات من المملكة! بعدها أخذت هبكنز في سيارتي وتوجهنا إلى القنصلية الأمريكية. وبعد فترة قصيرة عدت جواً إلى الرياض. وعند الإقلاع بدأ المطر ينهمر بغزارة واستمر هطول المطر طيلة الرحلة. كنت أنظر من نافذة الطائرة لأشاهد بعض المناظر والمناطق المألوفة لدي. وبعد فترة قصيرة حلقنا فوق كثبان الدهناء التي تمتد على مسافة عشرين ميلاً. وبعد مضي نصف ساعة بدأت أشعر وكأننا نتقدم ببطء لأنني ما زلت أرى كثبان الرمل من تحتنا. عندها قال لي قائد الطائرة الأمريكي المدعو أويد: بأننا ضللنا طريقنا ولا بد أن الريح قذفت بالطائرة باتجاه الجنوب. ذهبت معه إلى غرفة قيادة الطائرة وقلت: إنه

بغض النظر عن الأسباب عليه أن يخرج من منطقة الكثبان الرملية ويوجه الطائرة نحو الغرب؛ لأن هناك سيكون بإمكاننا التعرف على المعالم الجغرافية ونعلم حقيقة مكاننا. وبعد بضع دقائق تجاوزنا منطقة الرمال وشاهدت في الأسفل قلعة كبيرة مبنية من الطوب وأدركت بأنها كانت قلعة قصر رماح. وعلى عكس ما كان قائد الطائرة يتوقع اتضح بأننا كنا نتجه نحو الجنوب وكنا قد خرجنا عن خط سيرنا بحوالي خمسة عشر ميلاً.

أما ما تبقى من الرحلة فكان يسيراً؛ لأننا تعرفنا على معالم المكان من تحتنا وبعد فترة وجيزة هبطنا بسلام في مطار الرياض حيث كان المطر ينهمر بغزارة. أخبرني أويد أنه لو لم أكن معه لأرشده لكان قد عاد إلى الظهران بدلاً من تحمل مخاطرة الوصول إلى الرياض[1].

في تلك الأيام كان من الممكن لأمور عديدة غريبة أن تحدث أثناء الطيران؛ ذلك لأنه لم يكن لدى الطيارين علم أو دراية بالمعالم الجغرافية للمنطقة. وقد حدث في إحدى الحالات أن وجد قائد إحدى الطائرات -الذي كان متجهاً من جدة إلى الرياض- نفسه فوق سواحل الكويت! لكن العلم الآن تغلب على معظم هذه المخاطر، لكنني أتطلع إلى تلك الأيام التي كان طاقم الطائرة ينظر إليَّ وكأنني عضو فخري من جماعتهم. لا شيء يمكن أن يكون مشوقاً أكثر من مشاهدة بلد صحراوي من الجو خاصة إذا كان كل معلم من معالمه بمنزلة صديق قديم. هناك حادثة أخرى جديرة بالذكر ولكنها لم تنل الصدى الإعلامي الذي كانت تستحقه. ففي الثاني عشر من شهر ديسمبر (كانون أول) عام ١٩٤٥م بعد أن صلينا الظهر في المسجد الحرام بمكة عدت إلى منزلي، وهناك سمعت صوت زئير إحدى الطائرات.

---

(١) هذا كلام يدل على افتخار المؤلف بإمكاناته العلمية وكأنه خبير في شؤون الطيران كما يدل على مبالغة غير مرغوبة.

كانت تلك الطائرة متجهة جنوباً علماً بأنها كانت تميل بعض الشيء، وكأن قائدها كان يحاول التعرف على الموقع الجغرافي الذي كان يحلق فوقه. تساءلت فيما إذا كان طاقم الطائرة مدركاً لحقيقة أن الطائرة كانت تعبر مجالاً محظوراً. كان بمقدور كافة الناس في مكة مشاهدة تلك الطائرة. أبرقت الحكومة السعودية على الفور باحتجاج شديد اللهجة إلى البعثتين البريطانية والأمريكية؛ لأنهما يمثلان طاقم الطائرة المرتكب لتلك المخالفة الفاضحة. ردت البعثتان بالقول بأنه ليس لديهما علم عن أي طائرة تابعة لبلديهما متواجدة في الجو. وانتهى الأمر على ذلك النحو لكن تساءلت عما إذا كنت أنا الوحيد الذي تمكنت من تحديد هوية المخالفين الذين انتهكوا ذلك المجال. تبين فيما بعد أن طائرة من نوع سكاي ماستر كانت قد سجلت رقماً قياسياً في الطيران من بريطانيا إلى نيوزلاندا، وكانت وكالة الأخبار البريطانية تغطي مراحل تقدمها أولاً بأول. وفي عشية ذلك اليوم أذاعت الوكالة على الملأ خبراً مفاده أنه بسبب الأحوال الجوية الواقعة على خط الطيران من القاهرة إلى كولومبو فقد تحول مسار تلك الطائرة باتجاه كراتشي. ولنفترض أن الأمر كان على ذلك النحو يبقى أن ذلك التحول كان تحولاً كبيراً عن مسارها الأصلي، وربما كانت الطائرة تسير بمحاذاة الشاطئ نحو عدن قبل أن تحاول عبور المحيط الهندي.

بدا خلال فترة الاستراحة التي قضيناها في بريدة أن الملك كان قلقاً بخصوص وضع معظم الخيام التي كانت مهترئة بعض الشيء بسبب الاستعمال الجائر الذي تعرضت له خلال معسكرات الصيد. حصل الملك بهذا الخصوص على عرض للأسعار قدمه له أحد صانعي الخيام الكويتيين اعتقد الملك أن الأسعار الواردة في العرض كانت مرتفعة وعليه طلب رأيي في الموضوع. وقد حدث أن شركتي كانت وكيلة لشركة موار ملز كاونبور الهندية المشهورة؛ لذلك تمكنت من الحصول على عرض أسعار لألف خيمة بمعدل نصف السعر الذي عرضته الشركة الكويتية علاوة

على أن نوع الخيام الواردة في العرض كانت أمتن وأفضل. وعليه طلبنا الخيام، ولكي أتجنب حدوث أية أخطاء وأية عواقب غير مرضية قررت أن أذهب بنفسي إلى شركة كاونبور للإشراف على الترتيبات الأخيرة الخاصة بالصفقة. وافق الملك على ذلك الطرح وغادرت المملكة مع نهاية شهر مايو (أيار) متوجهاً إلى الهند عن طريق القاهرة - البصرة - كراتشي. وفي مدينة نيودلهي قمت بعدة زيارات إلى كاونبور وكشمير. استغرقت تلك الزيارات شهراً كاملاً، وحدثت قبل ولادة التوأم العظيم الذي كان مقدراً له أن يرث أملاك الهند البريطانية. وتماماً مثل التوأمين إيمان ويعقوب كان هذان التوأمان الهنديان يتصارعان في الرحم كما تصارعا في المهد إلى أن انفصلا في النهاية عن بعضهما ليشرف كل منهما على قطيعه في المروج الخضراء التي يصعب التعايش فيها بعض الشيء. سبق لي أن كنت من أكبر مؤيدي استقلال الهند كما كنت مناصراً لقضية فصل الدولة الهندية عن الدولة المسلمة. وكانت تلك فرصة سعيدة مكنتني من معاودة زيارة مسرح نشاطاتي المبكرة. جاءت تلك الزيارة في عشية اليوم الذي تحققت وتبلورت فيه أحلامي. كنت أحمل رسائل توصية زودني بها ابن سعود موجهة إلى اللورد ماونت باتن والزعيم باندت نهرو الذي كان في تلك الفترة يشغل منصب الوزير المكلف بالشؤون الخارجية. وكان في تلك الفترة يستعد لمزاولة مهامه الجسام التي رفعته بعد فترة قصيرة جداً إلى أعلى مراتب رجال الحكم والسياسة في العالم. ذكرني نهرو بأننا كنا زملاء دراسة في الكلية الكاثوليكية في جامعة كامبردج، كما ذكرني بأنني كنت رئيساً لجمعية ماغباي عندما التحق بها في السنة الأولى من دراسته. قابلت في منزل أحد زملائه المسلمين المدعو مولانا أبو الكلام آزاد صديق قديم عرفته في أوائل الفترة التي قضيتها في كلكتا والتي كنت خلالها أشغل منصب

أمين عام مجلس الامتحانات. تحدثت معه عن الأيام الخوالي التي جاهد فيها من أجل استقلال الهند. كما أجريت العديد من اللقاءات مع محمد علي جناح ومع عدد من كبار ضباطه، وبالمختصر أستطيع القول: إنني قابلت كبار الشخصيات التي أسهمت في تلك الدراما التي أوشكت الستارة أن ترتفع عن مجريات أحداثها. كان غاندي الزعيم الوحيد الذي لم أتمكن من مقابلته، إذ كان منزله المتواضع دائماً محاصراً بحشود كبيرة من عامة الشعب.

حظيت من قبل اللورد ماونت باتن وزوجته وكذلك من حاشية الرئيس بكل الضيافة والترحاب، كما قدموا لي العون لتحقيق الغاية من زيارتي. وسأبقى طيلة عمري ممتناً لتلك الحفاوة. حظيت أيضاً بشرف إلقاء محاضرتين في الوكالة الهندية للإعلام، كانت واحدة باللغة الإنجليزية والثانية باللغة العربية، تناولت فيها موضوع التطورات في المملكة العربية السعودية على أيام ابن سعود. ومن دواعي سروري أن كلمتي باللغة العربية أذيعت في سنوات عديدة متلاحقة تصادف إذاعتها في اليوم الثامن من شهر يناير (كانون الثاني) وهو الذكرى السنوية لتولي ابن سعود الحكم في المملكة.

وفي نهاية المطاف تغيرت الهند في عام ١٩٤٧م كثيراً عما كانت عليه في عام ١٩١٦م. لم يتسن لي بعد ذلك زيارة الهند. وما شد انتباهي بالدرجة الأولى كان الدور الذي أدته النساء الهنديات اللاتي أصبحن الآن متحررات وحكيمات في قرارهن بعد التخلي عن زيهن الجميل الذي وضعهن في مصاف أجمل ما ترتدي النساء في العالم.

بقي مشهد المروج التي يطل عليها فندق إمبريال ومشهد قاعة الرقص في ذلك الفندق في ذاكرتي أتخيله عند عودتي إلى قفار المملكة العربية السعودية. أما

القضية التي شعرت حيالها بخيبة الأمل فكانت موضوع الحصول على نوعية جيدة من الطعام المطبوخ بالكاري لا توجد إلا في بيوت الهنود وليس في المطاعم.

كانت مادة الأرز توزع بمقادير محددة جداً لدرجة أن الفنادق كانت تقدمه للزبائن مرة واحدة في الأسبوع، لكن هل يعقل أن يحدث هذا في الهند بلد الأرز؟

توجهت من نيودلهي جواً إلى بومباي التي تعاني من ندرة في مادة الكاري. وهناك كانت تراعى أيام يحظر فيها تناول الخمور، وكانت التحذيرات بهذا الخصوص توجه بشكل خاص إلى رعايا حكومة جنوب إفريقيا على الرغم من التحسينات التي طرأت على النظام القديم.

عدت إلى المملكة العربية السعودية جواً ومكثت فيها فترة قصيرة غادرت بعدها إلى بريطانيا وقضيت هناك ثلاثة أشهر عدت بعدها إلى مكة لأداء فريضة الحج.

obeikandl.com